ملء السلة من ثمر المجلة

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الرابع

الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ

ملء السلة
من ثمر المجلة

تأليف
عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الجزء الرابع

الطبعة الأولى : ١٤٣٣هـ

ح عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله

ملء السلة من ثمر المجلة: الجزء الرابع./ عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر.- الرياض، ١٤٣٢هـ.

٤٦٠ ص، ١٤,٥×٢١ سم

ردمك: ٨ـ ٨٨٣٤ـ ٠٠ـ ٦٠٣ـ ٩٧٨

١ـ المقالات العربية ـ السعودية ٢ـ الأدب العربي ـ مقالات ومحاضرات

أ. العنوان

ديوي ٠٨١ ١٤٣٢/١٠٧٥٠

رقم الإيداع: ١٤٣٢/١٠٧٥٠

ردمك: ٨ـ ٨٨٣٤ـ ٠٠ـ ٦٠٣ـ ٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء الرابع من كتابي "ملء السلة من ثمر المجلة"، وسيكون آخر جزء؛ لأني أوقفت المقالات التي كنت أنشرها في "المجلة العربية" ومجلة "الفيصل"؛ لأنه جاء ما يزاحمهما، ويحظى بالمكانة دونهما، فمنذ أن بدأت سلسلة "وسم على أديم الزمن" وهو كتاب يتحدث عن ذكرياتي، وما مرّ بي من أحداث رسمية أو أسرية أو غير ذلك، وأنا من الموحِّدين، ولا أُومن إلا أن الراحة في الحياة تتوافر مع زوج واحدة!

هذه المقالات هي آخر ما كتبته للمجلتين المفيدتين، وكان التزامي لهما هو الذي كان

يحــدوني ألا أتأخر عن موافاهمــا بما يضمن ألا يخرج عدد منهما دون أن يكون مقالي في مكانه. وعلى هذا لا أنسى أن أشكر القائمين عليهما، فكان للصولجان الذي يلوحون به إذا خشوا ألا ألحق بالركب، فضل في الاستمرار.

أما جاذبية "وســـم على أديم الزمن"، فهي في تماسك التواريخ، وجاذبيتها، والرغبة الشديدة في أن يعـــرف هذا الجيل حيـــاة الجيل الغارب، وما أسعد هذا الجيل، لحظوته بما توافر للحاضر، وحرم منه الماضي.

هذا الجزء من سلســـلة "ملء السلة من ثمر المجلة" يســـير على قضيب القطار الذي سارت عليه الأجزاء الثلاثة السابقة، فالنهج هو النهج، والأسلوب هو الأسلوب، والهدف هو الهدف،

وما اختلفت إلا الحقائــق التي تؤكد ما هَدَفتْ إليه هذه المقالات.

ومن الأهداف التي رمت إليها هذه المقالات أن تفتح نوافذ يطل منها الناشــئ على شيء من تــراث فكري لأجداده ومجد ثقافي، وما كان في هذا التراث من حِكم، وعصير تجارب، صاغوها صياغة متقنة لمن سيوفقه الله، ويقرؤها، ويتمعن فيما فيها، فســتكون له أداة جــذب لمواصلة التشــبع من هذا التراث، الــذي بدأ يبتعد عن عناية الجيل الحالي، وهو جيل الوسائل الحديثة، التي لا تُبخس فائدتها، ولكن المغالاة في أي أمر تأتي على حساب ما قد يكون فيه فائدة أكبر.

أنا متأكد أن من قرأ "ملء الســلة" سيكون له طُعماً في رأس سنارة، وسيدمن الغوص على

الدرر الفكرية والثقافية، ومظان الحضارة، التي جعلت أمة العرب بإسلامهم فوق كل الأمم في يوم من الأيام.

لقد حاولت أن أقطف من كل شجرة زهرة؛ لأُري القارئ الناشئ مصادر تراثه؛ لعله يقتنيها، ويكفي طموحي منه أن يصحبها معه في إجازته، وإذا كان الجسم في الإجازة يستريح، فأنا أضمن أن الفكر بقراءة هذا التراث سوف يستريح أكثر من الجسم، بل سيكون مريحاً للجسم نفسه.

إن ما احتواه هذا الجزء، مثل سوابقه، حاولت فيه أن يكون التنويع إحدى وسائل الجذب فيه والتشجيع، ولهذا جاء بفواكه الفكر متنوعة، فالقول المنير جاء على لسان رجل، وآخر على لسان امرأة، وأتى على لسان حضري، وأتى على

لسان بدوي، وجاء أحياناً على البديهة، وأحياناً بعد تحبير، والأمر أحياناً يأتي بين حاكم ومحكوم، وبين أب وابنــــه، وأم وولدها، ومعلم وتلميذه، وصاحب عمــــل والعامل عنده، وفيه صور تبرز ذلك العصر على حقيقته. إنه يعطي متعة أكثر مما تعطيه قصة فيلم على إحدى القنوات الفضائية.

هذه مقدمة، والمقدمة من المستحسن ألا تطول، ولهذا أقف عند هذا الحد في التعريف بهذا الجزء، وأترك للقارئ التلذذ بالمقالات التي نُزحت من نبع صافٍ.

وبالله التوفيق

قالوا وصدقوا

يطـــرب الأدبـــاء عندما يجـــدون الحكمة، ويبتهجـــون عندما يصادفهم القول الحســـن، فيسارعون إلى تدوين ما يتوافر لهم من حصيلة في ذلك، برهاناً منهم على تقديرهم، وتأكيداً على عزمهم في تطبيق مراميه، والأخذ بمقاصده؛ لأن في عموم ذلك بين أفـــراد المجتمع صلاحاً لهم، وسعادة تســـطع أنوارها بينهم، فيأتي من ذلك الخير العميم، فالأمن يستتب، والاقتصاد يزدهر، والرخاء يعم، وفي هذا سعادة الدنيا، وقد تكون الباب لسعادة الآخرة.

هؤلاء الأدباء أصبح عندهم ملكة تدلُّهم على

مواقع هذه الدرر، ومظان هذه اللآلئ؛ لأن من قبلهم سعى في التقاط هذه الفرائد، وصنفها بعد نقدها ودرسـها، فجعل لها أقساماً، ووضعها في فصول، وأدرج ذلك في أبواب، وقد يجتمع منها ما يؤلف كتاباً، أو مجلدات.

هذه الآراء الصائبة، والأفكار النيّرة، والأقوال الصادقة، تستحق أن تنظم دررها في خيوط حرير تليق بها، وتعلق على مشـاجب شـريفة، إذا لم تكـن علقت على قائلها. وإذا عرف الأدباء أن شـخصاً من البارزين في التاريخ يمكن أن يكون النافذة التي يطل منها على قول حسن، سارعوا إلى نحلـه إياه، والادعاء بأن القول قوله، خاصة إذا كان القول يسير مع المهنة التي عُرف نجاحه فيها؛ لأن في هذا ضماناً للقبول، والقبول أولى

درجات القول في الانخراط في طريق التسلسل عبر الحقب والدهور.

والإسكندر الكبير بن فيليبوس المقدوني، الملقب بذي القرنين، حاكم ناجح، اكتسح البلدان، وهذا في حد ذاته يعطيه حجة في أنه متقن لعمله، ومن أتقن عمله فمن باب أولى أن يتقن قوله؛ لأن القول صدى الفعل، وخلفهما رنين العقل، وأنغامه. يعضد نظرة الناس إليه هذه مع ما عرف من أنه تلميذ أرسطوطاليس، الحكيم ذائع الصيت.

والإسكندر - كما قيل - لم يعش طويلاً، إذ مات وهو ابن اثنتين وثلاثين سنة تقريباً، والمؤرخون لا يبرزون إلا المضيء من حياته، فيلصقون به الأقوال الصائبة، والحكم الصادقة،

وأنه غزا بلاد فارس، وآسيا الوسطى، وساحل البحر الأبيض المتوسط، وإليه ينسب بناء مدينة الإسكندرية، وأنه تتبع دارا، وانتصر عليه، وتابع زحفه إلى الهند والصين، والنصر معه أينما حلّ. ولكنهم لا يبرزون عيوبه، ومنها كثرة سكره، وإسرافه في المأكل والمشرب، تُرى لعله ضل طريق الحكمة في هذا الجانب المهم من جوانب الحياة!!

وما ورد من الأخبار عنه ما يروى من أنه لما توجّه للقاء دارا قال له جواسيسه:

إن دارا في ثمانين ألفاً.

فقال: القصّاب لا تهوله كثرة الغنم.

ولو لم ينتصر عندما قابل جيش دارا لم يُروَ هذا القول، ولم يصل إلينا؛ لأن كثرة الغنم لا بد

أن يحسب القصاب لها حساباً.

وفي مجال آخر، قيل له:

لو استكثرت من النساء كثر ولدك، ودامت بهم ذكراك.

فقال: دوام الذكر بحسن السَّير والستر، ولا يحسن بمن غلب الرجال أن تغلبه النساء.

ويقال: إن الإسكندر نظر إلى شيخ خضيب، فقال له: إن كنت صبغت الشيب، فكيف تصبغ آثار الكبر!

وفي وقت آخر روي عنه أنه نظر إلى امرأة مصلوبة على شجرة، فقال: ليت كل الشجر أثمرَ مثل هذه.

ونظر إلى رجل حسن الوجه، قبيح الفعل، فقال:

أما البيت فحسن، وأما الساكن فرديء.

[كتـــاب الإعجاز والإيجـــاز، للثعالبي. ص: ٥٣].

وبعض الأقوال التي تنســـب إليه قد لا يكون فيها إلا جمـــال لفظها، ولكنها عند الحك المُلحّ، والاختبـــار العميق، يتبين أن لا لبَّ فيها، بل قد تكون غير صادقة.

ولعل من أقواله الصائبة ما هو أقرب إلى القبول المجمع عليه، وقد يكون سبب قبول القول أنه عضـــد بالمثل الحي الملموس. وقد روي مثل هذا عـــن غيره، وقد يكون هـــو القائل، وقد يكون مقتدياً بمن ســـبقه، وليس له فيه إلا الكلمات، وذلك قوله:

"لا تســـتخفن الرأي الجليل يأتيك به الرجل

الحقير، فإنّ الدرة الفائقة لا تهان لهوان غائصها". [الإعجاز والإيجاز. ص: ٥٤].

وقد يرجح عليه القول الصائب المعروف: "خذ الحكمة ولو من أفواه المجانين".

على أن أقواله الصائبة تأتي فيما يخص مهنته التي نجح فيها، وهي الحرب، بل قد تتخذ هذه الأقوال دليلاً على صحة خططه في الحرب، وأن منطلق منهجه ما تدل عليه هذه الأقوال، وهي أقوال بلا شك صلبة في نجاح حروب تلك الأزمان. ومن هذه الأقوال في تدبير الحرب:

"احتلَّ الشمسَ والريحَ، فإن لم يكونا لك فعليك" [ص: ٥٤].

وفي هذا حكمة؛ لأن الموقع واختياره على أساس مقابلة الشمس، أو مهب الريح مهم، فإن

لم يكن في صالحك لم يكن في صالح عدوك.

وقوله في هذا المجال:

"حَبِّبْ إلى عـــدوك الفرار بـــألا تتبعهم إذا انهزموا" [ص: ٥٤].

وهذا بلا شـــك فيه حكمة؛ لأنك لو تعقبتهم لاستماتوا في الدفاع، وربما انقلب الدفاع هجوماً، وبهذا ترجح كفة العدو.

ويقول عن جانب آخر من جوانب الحرب:

"لا تغفل الخندق إن كنتَ مقيماً، ولا الحسك إذا كنت ظاعناً" [ص: ٥٤]. وهذا قول صحيح، فالخندق معوِّق لهجوم العدو إن هاجم، ومثبِّط له إن فكّر في الهجوم، والحسك، وهو الشوك، عبّر به عما يوضع من عوائق في طريق العدو المتتبِّع، المطارد.

كلمات توزن بالجواهر

هناك كلمات مضيئة، وأقوال مشـــعة، تنطق بالحق، وتصيب الهـــدف، معناها منير، وهدفها نبيل؛ لأنها تقصد الحســـنى، وتسير نحو الأجمل، لم يُنطـــق بها ارتجالاً، ولم تُلقَ على عواهنها، وإنما جاءت بعد تروٍّ وتجربة، وملاحظة وتحرٍّ. الفكر الذي صاغهـــا زاكٍ، والذهن الذي تبلورت فيه نابه، فجاءت بثوب قشيب، وإهاب جميل، تغري بالقبول، وتدعو للتّبنّي، وتستوجب الطاعة؛ لما ترمي إليه من عمل، وما ترشد إليه من نهج.

وإذا جعلنا أمر نسبتها إلى شخص بارز، ملكاً كان أو عالماً، أو ذا شهرة في مجالات من المجالات

المبجلة، جانباً، ولم نَدخل في تحقيق نسبتها إلى هذا أو ذاك، فـــإن ضياءها يصفو، ولا يأتي عليها من غبار الشك ما يكسف من شمسها، أو يقلل من بريقها، أو يحجب شيئاً مما ترمي إليه، أو يجعلها تقصر عن هدفهـــا، أو تقع دون غايتها، وذلك عندمـــا يخطر بالبال أنها موضوعة، وأن علامات النحل عليها واضحة، وأســـلوب ذلك العصر المتأخر فيها بيّن، وأنها استعارت أحد البارزين في المجتمع مشجباً، واتخذت بعض الفضلاء مطية لها؛ لتدرج عليها، ويكون لها قبول عند الناس، ولتؤدي الغرض الذي قيلت من أجله، والهدف الذي رمت إليه، سواء أكان ذلك المرمى فائدة علمية، أو دينية، أو قبليـــة، أو مهنية، أو مجرد متعة وطرفة، أو حتى مكيدة بين فريقين، أو فتنة

بين فئتين، أو تدخــــلاً بين طرفين، أو كان ذلك مناطحة بين كبشـــين، أو منافســـة بين قرينين، أو مطاولة بـــين أديبين في الحقل الذي يخصهما، ويتقنانه صنعة ومقدرة، أو همة قعساء ممن يبحث عن حظوة، أو يتقي جفوة.

مثل هذا كله يجب ألا يرجح على ما في النص من فائدة، بـــذل فيها الجهد، من إعمال الفكر، والغوص على درر المدارك، وثمين الجواهر.

وما دامت فائدتها واضحة، ونفعها ملموساً، فلا يضير إذا علق نصها على مشـــجب حكام بادوا، أو علماء ســـلفوا، أو بارزين انقرضوا، حتى لو بدا معطى لهم أكثر من حقهم، إذا قورنت هذه الأقوال الرزينة مع ما قد يكون نقصاً فيهم، يتنافى مع ما هو مقتبس عنهم مما هو مفيد.

ولعل بعض هذه الأقوال صيغت، وبذل فيها الجهد لأهداف لم توضح فيما دُوِّن، ولكن المتمعن يستطيع أن يضع يده على ما دعا إلى تأليفها، وقد يكون هدفها المفاخرة ضمناً؛ لأن الأديب ينتمي إلى الأمة التي رويت عنها هذه الحكمة، ليقابل بذلك ما قد يكون واقعاً من مفاخرة بين قومه وبين معاصريهم من العرب الأقحاح، وليردم فجوة كانت قائمة على قدم وساق في بعض العصور الإسلامية، وهي الفترة التي التقت فيها الحضارات، واشتد التنافس، وكان كل فريق يدلي بما عنده من المروي والمؤلف، ليرفع شأن جانب أمته، كما كان حادثاً بين العرب والفرس، والعصر العباسي كان عصر التطاحن، وإظهار ما في النفوس في صيغ مختلفة.

وقد لا يكون هناك شيء من هذا، وإنما مؤلف القول أراد أن يلبسه رداء شرف يتيه به بين الأقوال؛ ليشيع، والمدح يُبدى، رغبة في متعة القبول والاستحسان.

وقد يكون الواضع لهذا أديب عربي، صافي النسب، رأى ما عليه الخلفاء والحكام في زمنه، من انصراف عن منطلق الحكمة، وتدهور متدرج في الحكم، فأراد أن يوقف هذا الانحدار، بإثارة الحمية في هؤلاء الخلفاء أو الحكام، موحياً لهم، دون أن يصرح، بألا يكون الحكام العرب أقل إدراكاً من حكام العجم، ولا أقل غيرة وحمية على أنفسهم وشعوبهم. فإذا كان حكام العجم يأتون بمثل هذه الحكم المضيئة، ويسيرون في حكمهم في ضوئها، فعلى الحكام العرب أن يهيئوا أنفسهم

وأبناءهم لمثل هذا، ولما هو خير منه.

ونحن إذا وصفنا هذه الأقوال بأنها منيرة، وإشعاعها صادق، فلأن ما فيها حق وصدق.

وسننقل هنا بعضاً من تلك الأقوال:

"كان الصاحب بن عباد (إسماعيل الطالقاني) يقول:

يجب على الملك أن يكتب قول أردشير في سويداء قلبه، وسواد عينه:

لا سلطان إلا برجال، ولا رجال إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل، وحسن سياسة.

وكان يقول:

سلطان عادل خير من مطر وابل، وأسد حطوم خير من ملك غشوم، وملك غشوم خير من فتنة

تدوم.

ومن كلامه:

عدل السلطان خير من خصب الزمان.

لا تركنوا إلى هذه الدنيا؛ فإنها لا تبقى لأحد، ولا تتركوها، فإن الآخرة لا تنال إلا بها".

وروي عن سابور بن أردشير:

"انحطاط ألف من العِلْية أحمد عاقبة من ارتفاع واحد من السَّفَلة.

كلام العاقـــل كله أمثال، وكلام الجاهل كله آمال". [كتاب الإعجــاز والإيجاز. ص: ٥٨! ٥٩].

ضياء الحق ونور اليقين

ضياء الحق، وإشعاع اليقين، يسطع من تعاليم الدين الإسلامي، فهو دين العمل، وهدي السبيل، ونـــور الطريق، ولو تتبعنا تعاليمه التي جاءت في القـــرآن الكريم، وفيما صح عـــن النبي ﷺ من قول أو فعل، لوجدناها تصيب الهدف، لا تحيد عنه، ولوجدناها واضحة النتيجة فيما نأتي به من عمل قمنا به في هديها، وفي ضوء تعاليمها؛ لأنها مســـددة بالله سبحانه وتعالى وقرآن الله لا يأتيه الباطل من بـــين يديه ولا من خلفه، هو قمة الأقوال، وأبين الحجج، وأصوبها.

عندما يقول الرسول ﷺ:

"إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه".

وهذا أمر مجرب، ينوي المرء خيراً، فيأتيه مردود من الخير أضعاف ما نوى إن لم يعقه عن تنفيذ ما نوى عائق، وإن منعه مانع فهو على نيته مثاب مأجور، ولا بد أن ينال مع رضى الله ما ينفعه في دنياه. ولو تتبع أحدنا ما مرّ به من حسن نية، وما جاء منها من خير، لوجد هذا صحيحاً ثابتاً، سواء تدبر هذا في نفسه، أو فيمن حوله.

والخير العميم الذي يأتي للمرء من حسن نيته تجاه الآخرين يدخل في باب إقراض الله قرضاً

حسناً، والله – سبحانه – يضاعف الأجر لمن يقرضه، وهو القادر وهو الكريم، وصاحب الإفضال الدائم، والإنعام الفائض.

وقد تتبعت هذا في نفسي، وفيمن حولي، من أهل وأصدقاء ومعارف، ووجدت هذا الحديث قاعدة ثابتة، في صدقها، وفي وضوح نتائجها، حتى في الأمور التي قد تبدو غير مهمة، فالتسامح إذا أريد به وجه الله، والكرم إذا أريد به وجه الله، ومحاولة الصلح بين مسلمين متنافرين، إذا كان لوجه الله، يربو ويزيد ويزدهر، وتدخله البركة التي لا ينتهي مفعولها، فيتسلل ويتسلل ويتسلل، وقد يفيد منه الوليد والابن والحفيد.

وقد صدَّر العلماء هذا الحديث في أقوالهم، وفي كتاباتهم، وفي دروسهم، وبيّنوا أهميته، ومردوده،

وفحواه، وسنده القوي، ووضعوه في المقدمة؛ لما فيه من بريق الحقيقة، وصحة السند وقوته.

وقد اهتم الأدباء به لمعنـــاه ومبناه، وأتوا به ضمن جوامـــع كلمة ﷺ وهذا أحدهم وهو أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري في كتابه: "زهر الآداب وثمر الألباب" ومع شذور من أقواله ﷺ يورد الحديث بســـنده، ثم يتبع ذلك رأي أحد العلما، فيقول (١/٥٢):

قال أبو القاسم حمزه بن محمد الكناني:

سمعت أهل العلم يقولون:

هذا الحديث ثلث الإسلام، والثلث الثاني ما رواه النعمان بن بشير أن رسول الله ﷺ قال: "الحلال بيّـــن والحرام بيّـــن، وبينهما أمور مشتبهات، فمن تركها كان أوفى لدينه وعرضه،

ومن واقعهـــا كان كالراتع حول الحمى، ألا إن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله محارمه".

قال والثلث الثالث مـــا رواه مالك عن ابن شـــهاب عن علي بن حسين، أن رسول الله ﷺ قال:

"من حســـن إســـلام المرء تركه ما لا يعنيه". (٥٣/١)

هذه الأحاديث قناديل مشعة، ضياؤها صافٍ، ونورها باهر، وما على المرء ليفلح إلا أن يتمعنها، ويسير في هديها، ويجعلها الحاكم لسيره، والهادي لـــه في طريقه، ومن أخذها اعتقاداً فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن أخذها حكمة لن يعدم مردودها في دنياه.

الأحاجي وما وراءها

الأحاجي عمل فكري، يؤلفه فكر، ويستقبله فكـــر، وفيه مجهود في مرحلتـــه الأولى، مرحلة التأليف، ومرحلة التعقيـــد، وفي مرحلته الثانية مرحلة الحل، ومرحلة فك العُقد، ونقض ما أبرم بإتقان، وما قصد فيه الإيهام، وإبعاد الســـامع عن جـــادة الوقوع على القصد. أداة ذلك كله تلاعب بالألفـــاظ، أوليٌّ للمعاني، أو تداخل في الأسلوب، أو كنايات مبهمة، أو استعارات مغرقة في معانيهـــا. وما لم يكن من يتلقف الأحجية، أو اللغز، من المتمرسين في هذا الحقل، الذي يحتاج إلى نباهة، وقـــوة إدراك، وفهم لمجرى الكلام،

وطرق المعاني، وليّ الأفكار والمعاني، فإن تيار الأحجية يحذفه بعيداً، ويدخله في شبكة متداخلة النسج، تلتوي على مجال فكره، فلا يبعد عن المعاني القريبة من الذهن، وهي ما توحيه الكلمات في صورها الساذجة، ومتى ما سيطرت المعاني القريبة على ذهن المتلقي حبسته في قوقعة لا يخرج عن حيزها.

وبعض المجتمعات في كل العصور تعطي الأحاجي والألغاز أهمية كبرى؛ لأنها إحدى مخارج الفكر النابه، ومعيار الذكاء والفطنة. وقد تكون وسيلة رهان، يكون فيها كاسب وخاسر، وتختلف شروط الرهان، فقد ترتفع قيمتها مادة أو معنى. وطرافتها التي تأتي من كشف مقدرة العقول الملغزة، أو المتصدية للحل، ومرامي

الألغاز، وطريقة ســبكها، واختلاف أنواعها، وتعددها، تجعلها غير مملة، وجاذبيتها تبقيها حية يسلمها جيل لجيل، وزمن لزمن.

والألغاز والأحاجــي في المعتاد تكون صورة معبرة عن المجتمــع الذي ولدت فيه، ودرجت على أديمه، يدفعها دافع، ويســتقبلها مستقبل. فالمجتمع الصناعي أحاجيه منه، والمجتمع الذي تغلب عليه التجــارة يمتح الملغزون بدلائهم من ينابيعــه، والفلاحون لهــم ألغازهم، وهي نبت حقولهم، ولبّ محصولهم، والأطباء أحاجيهم من مستشفياهم، ومرضاهم، وأدواهم، وأصحاب المهن المختلفة يغرفون من بحار أعمالهم. والطلاب والصغار، إذا نَبَه بينهم نابه في هذا الحقل فإنهم لا يبعدون عن محيطهم، يأخذون منه ما يسعفهم.

وتكون الألغاز والأحاجي، أحياناً، سطحية في ظاهرها، ولكنها تكسب أهميتها من حيرة الناس فيها، يسأل أحد الملغزين مجموعة من الناس، وهم في سهرة من السهرات، التي يجمل فيها إزجاء الوقت، وبعد أن يكونوا استوعبوا عدداً من القصص، وتطلعوا إلى إحماض في اتجاه آخر، فيقول لهم: "ما هو الشيء الذي يمشي في المطر ولا يبتل"، فتأتي الإجابات المتفاوتة، وكلها فيها نقص عن الجواب، تقصر عنه، أو تتعداه، تكون ضيقة عليه، أو واسعة سعة لا يسلِّم للمجيب بها أحد.

وبعد أن يعجز القوم، وتنكسر شوكة محاولتهم، والسائل تغمره البهجة، ويعلو محياه الابتسام، يستقيم في جلسته، وكأن الأمر في حل اللغز،

وكشف السرّ فيه، يحتاج إلى اعتدال في الجلسة، وقد يتنحنح إمعاناً في التشويق، عن طريق إطالة وقت التطلع، وهو يتلذذ بِسمات الحيرة على الوجوه، والتحديق من العيون، ويقول بشيء من الأناة والتشدق: "إنه ظِلُّ الإنسان السائر في المطر".

وقد ينفجر القوم ضاحكين، ويحنقون على أنفسهم؛ لأن الحل قريب منهم، ومع هذا أبعدوا عنه؛ للإتقان الذي اتسم به اللغز، وصياغته. وقد يقول بعضهم: إنه كان قريباً من ذلك، ولكنه في الوقت نفسه كان في الحقيقة بعيداً. والحالة يمكن أن توصف بأنها كانت تغلي، ثم صُبَّ عليها ذَنُوب من ماء. وهذا اللغز عند التبصر نجد أنه يوحي بأن منشأه بلاد يكثر فيها

المطر، ويعاني الناس فيها مــن البلل، وقد تولّد اللغز نتيجة غبطة الناس للظل الذي لا يؤثر فيه المطر، فيجعله يرتجف في الشتاء مثلهم.

ثم ينظر القوم بعضهم إلى بعض، ويؤملون أن يكون من بينهم من يسعفهم بما يشدهم، بعد أن هدأت أعصابهم من الشد الذي مروا به. ولا يعدم أن يكون بينهم من هو مختص بقنص الأحاجي، فيســعدهم بإعلانه أن لديه لغــزاً، وهذا اللغز ينحو نحواً مختلفاً عن الســابق، ويصل سبكه إلى ما يوجب قمة الحيرة؛ لما يبدو من استحالة وقوع ما رمى إليه اللغز. واللغز هو: "ما هو الشــيء الذي يأتي مرة في القرن، ومرتين في الدقيقة". هنا يتوه الفكر من أول الطريق، فالقرن من عظَمه لا تذكر بجانبه الدقيقة، فكيف يكون فيها أَضعاف

ما فيه، فيوغل الفكر في الجادة ويبعد، حتى يدخل جادة أخرى، أبعد وأبعد، ثم يبدأ الصبر يضعف، واليأس يزيـــد، والأعصاب تكترب، ويبدأ رمي الحل من هنا، ومن هنـــاك، وهي حلول بعيدة، ومُلقوها يعرفون هـــذا، ولكنها محاولة اليائس، قطعاً للصمت، الذي أحياناً يقطعه هذا، وأحياناً يقطعه استفسار يُلقى، لعله يشع نوراً على جانب يهدي إلى ما لم يكن واضحاً قبل ذلك.

ويأتي الحل كالمعتاد ســـاذجاً، سطحياً، وفي غمرة الاستماع إلى الحل، بعد التسليم بالعجز، يفاجأ القوم بأن محور الحل في حرف "ق" الذي يأتي في كلمة "القرن" مـــرة واحدة، وفي كلمة "الدقيقـــة" مرتين. إذاً الأمر ليس في المعنى، وإنما في الحرف، فيقر القوم بغبائهم ما لم يكن أحد قد

فتح الله عليه، وسقط على الجواب. ولا أدري من أي مهنة جاء هذا اللغز، وقد يكون جاء من فلكي، أو نحوي.

وما دمنا في سبيل المهن، وتأثيرها في صوغ الأحاجي، فهناك لغز تبلور في مشغل صائغ، يقول:

"ما شيء شفته (أي رأيته) ينقل شفته
شفت الصائغ في صندوقه".

[ورد في كتابي "أي بنى" ٣/١٢٨ عن ألغاز أخرى انظر ص: ٣٠! ٩٨! ٩٩! ١٢٥! ١٣١! ١٣٤].

اللغز يتركز في "شفت الصائغ في صندوقه"، فما دام أن "شفته" في أول اللغز تعني "رأيته"، فكيف يُرى الصائغ في صندوقه، وصندوقه صغير،

لا يدخـــل فيه إلا بعض عدة الصاغة، وهي عدة صغيرة دقيقـــة. ولا يقضي على الحيرة إلا نقض بعض ما أبرم في هذه الألفاظ المتماثلة. صحيح أن "شفته" الأولى تعني رأيته، وهي عنصر في الإبهام، لكن "شـــفته" الثانية تعني ملقط الصائغ، وهي كلمة معربة من كلمة "جفت" لعلها بالفارسية. هنا يزول اللبس، ويتضح ما كان مبهماً، فالذي رؤي في الصندوق ليس الصائغ، وإنما ملقطه.

هذه أحاج وألغاز للتسلية السريعة والساذجة، ولكن هناك ما هو أعمق، ومبني على علم عميق، وفقه في بعض علوم الشرع، ولكن كما سوف نرى، إذا كان اللغز صيغ صياغة متقنة، فإنه لا يفـــل الحديد إلا الحديد، لقد ألقى الأحجية عالم متمكن، ونقض مبرمهـــا عالم مثله، ونحن، عامة

الناس، كأن رؤوسنا كرة بأيدي لاعبين.

هــذا لغز وقصة، أما اللغز فواضح أنه متقن، وأدى الغــرض الذي قيل من أجله، أما أن هذا فعلاً وقع من مالك للشافعي، أو أن هذه الحالة قد وقعت فعلاً، فأمر يحتاج إلى وقفة:

"كتب بعــض علماء مالــك رضي الله عنه للإمام الشافعي رضي الله عنه:

يا إمام، لي خالة، وأنــا خالها، ولي عمّة وأنا عمُّها، فأما التي أنا عمٌّ لها، فإن أبي أمَّه أُمُّها أبوها أخي، وأخوها أبي على ســنّة قد جرى رسمها، وأما التي أنا خال لها فإن أبو الأم جدّ لها، ولسنا مجوساً ولا مشركين، بل سنة الحق نأتيها.

فأين الإمــام الذي عنده فنــون التناكح أو علمهــا، يبين لنا كيف أنســابنا، ومن أين كان

كذا حكمها؟".

"فكتب إليه الإمام ﷺ: القائل لهذه المسـألة، تزوجت جدته لأبيه، يعني: أم أبيه، بأخيه لأمه، وتزوجت أخته لأبيه بأبي أمه، وأولدهما بنت ابن. فبنت جدته عمته، وهو عمها، وبنت أخته خالته وهو خالها".

[المختار من نوادر الأخبار. ص: ١٦].

وهذا جواب للغز لا يثبت إلا في ذهن فقيه، وضعفه يأتي من ندرة وقوع ما رسم.

ويبدو أن الراوي، أو الناحل الفقيه رأى أنه يجد في الإمام الشافعي ﷺ مجالاً ينطلق منه لحل ألغازه، إذ إنه بعد أن انتهى من الأحجية الأولى، والإجابـة عنها جاء بمادة فقهية أخرى، رأى أن فيها مجالاً لإعمال الفكر، ورأى أن خير من يُنصِّبه

للإجابة هو إمـــام من الأئمة المعتبرين، وهذا هو فحوى اللغز:

"كتب له (الإمام الشافعي) بعض علماء الإمام مالك - رحمه الله -:

يا إمام، ما تقول في الفرض، وفرض الفرض، وما يتم به الفرض، وصلاة لا فرض، وصلاة تركها فرض، وصلاة بالطـــول والعرض، وصلاة بين السماء والأرض، وصلاة في السماء والأرض".

فكتب رضي الله عنه:

أما قـــول القائـــل: الفرض، فهـــو الخمس صلوات، وفرض الفرض فهـــو الوضوء، وأما قوله ما يتم به الفرض فهو الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما قوله: صلاة لا فرض، فهي صلاة الصغير قبل البلوغ، وأمـــا الصلاة التي تركها

فرض، فهي صلاة السكران. وأما الصلاة التي بالطـــول والعرض، فهي صلاة "يونس" في بطن الحوت، وأما الصلاة التي بين السماء والأرض، فهي صلاة ســـليمان – عليه الســـلام –، وأما الصلاة التي في الســـماء والأرض، فهي صلاة رسول الله ﷺ ليلة المعراج".

[المختار من نوادر الأخبار، ص: ١١٦].

اســـتوعب الملغز كل ما يمكن أن تكون عليه الصلاة، وأخذ الأمر بطريـــق منطقي، وحافظ على ســـجعة الضّاد، وعندما انتهى ما يمكن أن يعبر عنه بالفرض، جاء بالعرض والأرض. وكان الإمام قد أعده علمه وعقله للإجابة، وحل عقد اللغز.

والأحاجي والألغاز بـــين العلماء بعضهم مع

بعض، وبين الشعراء بعضهم مع بعض، لا تكاد تحصـــى، وفيها أبواب في الكتب، بل فيها كتب قائمة بذلك. وما هذه إلا لمحة سريعة، يُطَلُّ منها على ما في هذا الحقل المزدهر.

إعطاء الجنون إجازة[1]

العقـــل جهاز رقيق، يأتي مـــا يقويه، ويأتي ما يضعفه، وقلب الإنسان في هذه الحياة بين أصبعي الرحمـــن، يرجو من الله إن كان مؤمناً أن يلطف به، وأن يـــرأف بحاله، وأن يجنبه تقلبات الزمن، ونازلات الإحَن، وما هو مخبأ في الغيب له، وليس في صالحه.

والجنون لا يخصّ الإنسان، فقد يُجن الحيوان، ولكـــن تدني قيمة الحيـــوان في هذه الحياة تجعل جنونه مما يمكن التغلب عليه، والســـيطرة على

(١) نشرت في المجلة العربية شهر ربيع الأول ١٤٣١/مارس ٢٠١٠ العدد ٣٩٨.

تصرفه، وقد تكون أقرب وسـيلة هي القضاء عليـه، والجمل، مثلاً، إذا هـاج يصبح خطيراً ومخيفاً، وقـد يكون القضاء عليـه من أقرب الوسـائل؛ لتجنب أذاه، رغم ما قد يكون على صاحبه من خسارة مادية.

ولكن ابن آدم ثمين، سواءً كان رجلاً أو امرأة، طفلاً أو كبيراً، معوقاً أو سـليماً، فإذا "اندفق" عقلـه أصبح هماً كبيراً على أهله، وعبئاً عظيماً على مجتمعه، وخطراً على نفسـه أحياناً وعلى مـن حوله، فَتَكُدُّ الأذهان حينئذ للبحث له عن علاج، ودفـع الغالي والنفيس لإعادة العقل إلى ما كان عليه، وكسب فرد مقبل على الحياة خير من أن يخسر.

والجنون فنون مختلفة، وأنواع متباينة، له صور

تتوقّـــع، وصور تأتي مفاجئة، وتخرج بأشـــكال جديـــدة، ولكل جنون مظاهـــره، ولكل جنون آثـــاره، وكان الناس في الزمن القديم يقســـون على المجنون، فيسلسلونه، أو يهينونه، أو يأخذه الصغار مهزلة يلهون بها، وبعض هذا يزيد المجنون جنوناً، ويبعده عن الشفاء. وكان في المملكة، في بلدانهـــا المختلفة، مجانين، ليس منا إلا من عرف بعضهم.

ثم بدأ النظر في علاجهم علاجاً يســـير على أصول مدروســـة، تُوصِّل فيها إلى نتائج مفيدة، ازدادت مع التجربة تحســـناً، وصار لكل مظهر حالة علاج، وطرق للتغلب على ارتفاع العقل وزواله، وإعادته إلى مستكنِّه.

وإذا قلنـــا: إن الجنون فنون، فيمكن أن ينظر

إلى بعض هـــذه الفنون المختلفة في كتب الأدب والتاريخ، وبالذات كتـــاب: "عقلاء المجانين" للنيســـابوري، وفيه قصص متعددة، لها جوانب مختلفة، ولكنها تعد فنّاً واحداً من فنون الجنون وأقســـامه، فهي تنصب علـــى مجانين جاء منهم مواقـــف هـــي في منتهى العقـــل، وتكون محل الاستغراب والعجب؛ لبعدها عن الجنون، وعن تصرف المجانين، وإحدى هذه القصص المدهشة حقاً القصة الآتية، (وهي في الصفحة ١١٥ من الكتاب المذكور):

"قال علي بن عبدالملك:

كان بطرســـوس مجنون اسمه رزام، وكان إذا خـــرج مع الناس أخذ ســـيفاً ودرقة، ولا يزال يلقى أعداء الديـــن، فإذا حصل في الحرب زال

عنه جنونه، فإذا انقضى القتال، وعاد إلى البلد، رجع إلى جنونه".

من نتائج سوء النية[1]

نية الإنسان تؤثر في عمله، وتتحكم فيه، إن كانت حسنة جاءت بالحسن، وإن كانت سيئة جاءت بالنتيجة السيئة، تؤدي دورها في هذا الاتجاه، وتديم سيرها فيه، فلا يكاد صاحب نية حسنة يخفق، ولا صاحب نية سيئة يصيب، ولو راقب أحدنا تصرفه في ضوء ما ينوي، وفي ظلال ما يخبئ، لوجد مصداق هذا القول في أعمال الإنسان، صغرت أو كبرت، حتى في تصرفاته يوماً بعد يوم، مع أهله وولده، ومع أصدقائه ومعارفه، ومع من يتعامل معهم اجتماعيّاً، أو

(١) المجلة العربية شهر صفر ١٤٣١ الموافق فبراير ٢٠١٠ العدد ٣٩٧.

تجارياً، وما على الإنسان إلا أن يراقب هذا الأمر مراقبة دقيقة، وأن يتحرى في هذا الجانب بتبصر وبتدبر، وسيرى مدى صدق هذا القول: "إنما الأعمال بالنيات".

بعض الناس يعمل عملاً يريد به وجه الله، وينفع به من يستحق النفع، يعلن عن هذا أو يبطن، فينير له الله الطريق، ويفتح له أبواب النجاح، وتأتي النتائج كما أمّل، بل قد تأتي على وجه خير مما أمل، ولو لم ينجح في اتخاذ الأسباب، ولكن بقي مبيتاً النية الحسنة، فإن ثوابه عند الله محفوظ، فإن نوى أن يساعد وجهد في هذا، ولكنه أخفق في أن يهيئ الوسيلة، فإن الله لا يتركه خائباً، ولا بد أن يأتيه ثواب نيته، فيرزق من حيث لا يحتسب.

أما من يعمل عملاً يريد به السمعة عند الناس، وارتفاع مقامه بينهم، فإن الله يكله إلى نفسه، ومن وكله الله إلى نفسه في قضاء أمر فقد خاب، وعاد بخفي حنين، حتى لو كسب إعلاماً، وربح شهرة، فإنه لا يعد رابحاً أو كاسباً، خاصة إذا وزن هذا بميزان النية لوجه الله، وما تأتي به من خير عميم.

وفي القصة الآتية نموذج للنية السيئة، والإضمار الخبيث، فقد ارتد السهم فيه على الرامي، وخاب الرامي خيبة، لعله تمنى أن الأرض ابتلعته، فقد ظن أنه عال، فوقع على باقعة، كسرت أضلاع عُلوِّه، وأركَسته إلى الأرض، نسأل الله العافية:

"قال الزبير بن بكار:

لما ولي عبدالعزيز بن الوليد بن عبدالملك

دمشـــق، ولم يكن في بني أمية أَلَبَّ منه في حداثة سـِّـنه، قال أهل دمشـــق: هذا غلام شاب، ولا علم له بالأمور، وسيسمع منا، فقام إليه رجل، فقال:

أصلح الله الأمير عندي نصيحة.

قال له: ليت شـــعري ما هذه النصيحة التي ابتدأتني بها من غير يد سبقت مني إليك؟!

قال: لي جار متخلف عن ثغره.

فقال: ما اتَّقيت الله، ولا أكرمت أميرك، ولا حفظت جوارك، إن شئت نظرنا فيما تقول، فإن كنت صادقـــاً لم ينفعك ذلك عندنا، وإن كنت كاذباً عاقبناك، وإن شئت أقلناك.

قال: أقلني، أصلح الله الأمير.

قـــال: أذهب حيث لا صحبك الله، إني أراك

شر جيل رجلاً.

ثم قالَ: يا أهل دمشق، أَمَا أعظمتم ما جاء به هذا الفاسق، إن السعاية أحسب منه سجية، ولولا أنه لا ينبغي للوالي أن يُعاقب قبل أن يُعاتب، كان لي في ذلك رأي، فلا يأتيني أحد منكم بسعاية على أحد بشيء، فإن الصادق فيها فاسق، والكاذب فيها بَهَّات".

فقال الراوي: فحدثتُ بهذا الحديث عبدالله ابن داود، فقال:

ما أشبه هذا الكلام بكلام عمر بن عبدالعزيز!

فقلت: عمر بن عبدالعزيز خاله".

[الأخبار الموفقيات، للزبير بن بكار، ص: ٢٩٢].

إشعاع السليقة

السـليقة إذا بقيت على خلقـة الله لها، أو صقلت بما يحميها من تراكم الصدأ إليها، نفعت صاحبها، وحمته من الزلل في الحياة، والسـليقة الصافية مغلفة بالنية الحسنة، والنية عطية تأخذ المرء إلى المنتوى، والإنسان وما نوى.

جاء في ذهني هذا، وأنا أقرأ جدلاً قام مع أعرابي كان على سليقته، يعرف الخير فيختاره، ويعرف الشر فيتجنبه، لم تدنسه أفكار المدنية والمتمدنين، ولهذا في آخر الحديث بين هذا الأعرابي وسائله، نال هذا الإعجاب والتقدير، والقصة هكذا.

حدث الزبير قال: حدثني محمد بن سلام:

أن أيوب السختياني كان في مجلس فيه أعرابي، فقال له أيوب:

يا أعرابي، لعلك قدريّ؟

قال: وما القدريّ؟

قال: فأخبره بمحاسن قولهم.

فقال: أنا ذاك.

ثم أخبره بما يعيب الناسُ من قولهم.

فقال: لست بذاك.

ثم أخبره بمحاسن أهل الإثبات.

قال: أنا ذاك.

ثم أخبره بما يعيب الناس من قولهم.

فقال: لست بذاك.

فقال أيوب: هكذا يفعل العاقل، يأخذ من كل شيء أحسنه. [الموفقيات، ص: ١٦٤].

إضاءة(١)

يشع النور ســاطعاً من تصرف بعض الناس، الذين منّ الله عليهم بتوفيقه، وهداهم إلى الصراط الســوي، والنهج القويم؛ لأن الله - سبحانه - اطّلع على ما في قلوبهم من حسن النية، وصواب العمل، والله - سبحانه - لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو - سبحانه - يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، وحكمه حق، أما حكم الناس فيأتي من أخذهم المظهر، والمظهر قد يُفتعل، ويُبَيَّن منه خلاف ما يخفي صاحبه.

---

(١) نشــرت في المجلــة العربية بالعدد ٣٨٣ ذو الحجة ١٤٢٩/ديســمبر ٢٠٠٨.

هنـــا قصة جميلة في كل خطـــوة خطتها هذه القصة؛ لأنها عن قناديل مضيئة في مجتمع حضاري مرموق، وها هي القصة:

حدث الزبير قال:

حدثني عمي مصعب بن عبدالله قال:

جاء إبراهيم بن بريهة إلى غسان بن عبّاد (من رجال المأمون) يشـــكو إليه غلبة الدين، وضيق الحال، وســـأله أن يرفع لـــه رقعة إلى المأمون في إدرار أرزاقه، وقضاء دينه.

فقال: وكم دينك؟

قال: ثلاثون ومئة ألف.

قال: هات رقعتك.

فأخرجها من خُفِّه، وذهب ليقوم.

فقال: مكانَك.

ثم دعا بالغداء، ودعا بوكيله، فقال:

"ادنُ مني".

فسارّه، وقال:

احمل الساعة إلى مترل بريهة مئة وثلاثين ألف درهم، فحُمِلتْ قبل أن يتغدى. فلما انصرف وجدها في مترله، وركب غسان من الغد، فكلّم أمير المؤمنين في دينه، وعرض رقعته.

فقال له المأمون: قد بلغني ما فعلت أمس، فوصلك الله بصلتك، فأنت - والله - ممن إذا تكلم نفع كلامُه، وإذا سكت حسُن سكوته.

ثم قال: نعم وكرامة، قد أمرنا بقضاء دينه، والزيادة في أرزاقه، وأدررنا عليه.

فدعا له غسان، وانصرف. فلما ولى أتبعه بصره، فقال:

لا تزال الخلافة ذات بهجة ما حضر مجلسنا مثلُ هذا، ما اغتاب عندي أحداً قط، ولا اعترض في كلامه، ولا سأل حاجة لنفسه، ولا جرّبنا عليه كذباً ولا خيانة، ولا سبقه لسانُه بلفظة اعتذر منها.

ثم كان أول توقيع بعد هذا خرج ثلاثة آلاف درهم (كذا، ولعلها ثلاث مئة ألف) لغسان بن عباد التارك ما لا يعنيه (٨١) الموفقيات.

يخرج المتدبر في هذه القصة بعدة أمور:

الأول – حسن اختيار المأمون للرجال حوله، فغسان هذا كما وصفه المأمون، يستحق أن يكون من رجال خليفة ناجح مثل المأمون، وخلق غسان هذا، وما تميز به، وما اتصف به أهله أن يقيمه المأمون والياً على خراسان، في وقت من

الأوقات.

الثاني: أن غسان لا يعرف إذا كان المأمون سيؤتي بريهة سؤله أم لا، فسلك الطريق النبيل الذي يتأكد منه أن السائل يأخذ طلبه. قام غسان بإعطائه المبلغ المطلوب حالاً، وزيادة في إكرامه، وضمانة فرحه، دعاه إلى الغداء، ليصل المبلغ إلى بيته قبل أن يصله هو.

الثالث: أن المأمون مطلع على أحوال رجاله، فقد جاءه خبر إعطاء غسان بريهة المبلغ، وانتظر من غسان أن يوصل إليه الشكوى، وقد فعل، فكان عند حسن ظن الخليفة.

الرابع: أن غسان بن عباد لم يكتفِ بإعطاء المبلغ المطلوب، ولكنه رفع الشكوى إلى المأمون؛ لئلا يأتي في ذهن المأمون أن غسان قطع مجرى

ماء الكرم عنه، وصده إلى جهته، وإنما فتح باباً للمأمون أن يكون أكرم من غسان، وقد كان.

الخامس: أن المأمون كشف، وهو يعدد الصفات الحميدة في غسان ما يحبه الملوك في جلسائهم، وهي صفات تكتب بماء الذهب؛ لأنها مفاتيح قلوب الملوك، ونعم المفاتيح.

وبعد ألم أقل: إنها "إضاءة"، إنها في الواقع "إضاءات"[1].

(١) الموفقيات: ٨١.

رأي صادق[1]

ورد في أقوال الأمم الســابقة "كلام الملوك ملوك الــكلام"؛ لأن الملوك في تلك الأزمان لا يتكلمــون إلا لماماً، ويحرصــون على أن تكون مجالسهم العامة ذات هيبة ووقار، فلا يقال فيها إلا القليل، والقليل إذا قيل جاء في ثوب حكمة، وهذا يغري بروايته ونقله وتداوله، والاستشهاد به، وتطبيق ما يرمي إلى التطبيق، والملك في مجلسه لا يحرص إلا على النطــق بمثل هذا، فيصبح ما يقال نقله شــرفاً، وروايته فيها لذة، ويروى ما

(١) ظهرت في المجلة العربية في شهر ذي القعدة، ١٤٢٩هـ الموافق نوفمبر ٢٠٠٨م.

يقول بافتخار واعتزاز. وتزيد قيمته كلما طالت مـــدة حكم الملك، وحينئذ فهو يأتي بما ورثه من آبائه من علم وتجربة، مضافاً إليه ما اكتسبه من تجارب الحياة، وما مر به فيها، وما خرج به، وما تدبره، وما تبصره، وما استقرأه، وما حمده أو لم يحمده.

وكســـرى ممن روي عنه كثـــير من الأقوال الصائبة، التي تدل على فكر صافٍ، وعراقة في تجربة الملك، وأمور الحياة، وبعض ما يروى لعله قاله فعلاً، أو فعله، وبعضه قد يكون لغيره ولكن الرواة، لسبب أو آخر، نسبوه إليه، إما حبّاً فيه وجهلاً بالقائل الأصل، أو قيل لمزاً لحاكم مسلم في العصر العباســـي بالذات، أو ترجيحاً لكفة عقل الفرس على العرب في زمن كان التســـابق

إلى الأمجاد بين من تسلسل من نسل عربي أو انحدر من أصل فارسي.

وأمامنا قول منير منسوب لكسرى، ملك الفرس، في حقبة من حقب ازدهار الملك، وتكريم العقل، وبذر أسس الحضارة التي عرف بها ذاك الزمن. والقول الذي روي عنه قول مضيء من جوانب عديدة، فهو غرف من بيئة اتصفت بالصفات التي وردت في هذه الفكرة الناهة، وهي حصر فكري متقن لنصيحة جاءت مغلفة بغلاف حاذق يجعل الاختيار فيها أبرز من الجبر الذي توحي به بعض النصائح، وهذا ما قاله كسرى مروياً عنه في كتاب التذكرة لابن حمدون، الجزء (١) ص (٣٨١).

لا تنزل ببلد ليس فيه خمسة أشياء:

"سلطان قاهر، وقاضٍ عادل، وسوق قائمة وطبيب عالم، ونهر جارٍ".

وكل واحد من هذه الأمور ينطق بالصدق، ويقول الحق، وكل هذه الأمور الخمسة متماسكة الأيدي، لو فقد واحد منها لاختل الأمر، ولانقطعت السلسلة، ولبطل السير إلى الهدف.

فالسلطان القاهر هو السلطان الحازم الذي يعطي الهيبة، ويثبت أركان المجتمع، ويحمي أمنه، ويقيم أمده، هو الذي لا يتراخى في تنفيذ ما يحتاج إلى تنفيذ سريع وجازم. كان هناك حاكم قلعة ليست بعيدة عن منطقة الكرك والشوبك في الشام أيام الحروب الصليبية، وكان يمر به بعض الحجاج في طريقهم إلى الحج، فتأخذهم بعض القبائل التي اعتادت أن تقطع طريق الحجاج،

فإذا أتي له بقاطع طريق، قاتل لحاج، قال: أطلقوه فالحي خير من الميت.

إنها كلمة جمَّلها الشيطان، فجاءت بموسيقى زائفة، أطربت بعض الزائفين.

ثم مات هذا الحاكم، وخلفه حاكم حازم، فلما قتل أحد الحجاج مسك بعض رؤساء القبائل التي تجوب تلك البقاع، وأقسم إنه إذا لم يُؤْتَ بقاطعي الطريق في ظرف مدة حددها ليتركن محاربة الصليبيين ويحاربهم، بادئاً بقطع رؤوس الرؤساء الذين عنده، ولم يمضِ نصف المدة التي حددها إلا والقتلة قد أحضروا، فأمنت السبل بعد ذلك.

صورة واضحة وجلية لما يفعله الحزم، وهذا سلطان قاهر، ولكنه عادل، لم يتوانَ في أخذ

الحق.

و"قاضٍ عادل" إذا عدل القاضي، وابتعد عن الهوى، وتوخّى ألا يحيد عن شرع الله أمن الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، واستراح الحاكم المنفذ لأحكام الشرع، وقام بواجبه دون توانٍ أو تردد.

و"سوق قائمة" فيها بيع وشراء، وجلب وتصدير. وتبعد بذلك البطالة، وتزدهر أمور المجتمع، فكلٌّ يجد رزقه بسهولة إذا صال في السوق وجال.

و"طبيب عالم" لا طبيب مدعٍ، يزيد المريض مرضاً، ويبعد الشفاء ممن يرجى برؤه، طبيب عالم بالأدواء، عالم بما يناسبها من الأدوية، عالم بأنفس المرضى على اختلافهم، إن رجلاً كبيراً

أو صغيراً، إن امرأة أو طفلاً، إن مريضاً حقاً، أو مريض وهم، والعالم في أي حقل يمشي بنور الله، وأقرب أن يُهدى.

"ونهر جارٍ" والماء شريان الحياة، ونص كسرى على النهر الجــاري، وكأنه يقول: إن هناك ماءً لا نفقة في الحصول عليــه، فلا حفر ولا عدة، ولا حمل ولا نزح، والماء ميسر لكل غرض يخطر على البال.

وكسرى إنما يحكي عن بيئته، ولم يكن في ذهنه جزيرة العرب أو الربع الخالي!! أو لعله؟

حجة مُلجِمة[1]

يمرّ بنا في كتب الأدب والتاريخ عن الأمويين مـــا يوحي أحياناً بالانحياز ضدهم، وهو أمر نجد أسبابه منـــزوبة في الظلام خلف الوقائع، ونحتاج إلى أن نمعن النظر فيها، ونقرأ فيها ما لم تصرح به الكلمات، وما لم يظهر واضحاً في الـــجُمل.

وإذا كان من بين ما نقرؤه تحيز ضدهم، فهناك ما يرد في صالحهم ضد عـــدد من أعدائهم، أو منافس من منافسيهم. ولكن هناك كذلك أخباراً توحي بالحقيقـــة والإنصاف؛ لأن مجراها طبعي،

(١) نشـــرت في المجلة العربيـــة في العدد ٣٦٨ رجـــب ١٤٢٩هـــ/يوليه ٢٠٠٨م.

ويأتي مما نراه في الحقيقة، ويحدث مثله في زمننا، ومن ذلك النص الآتي:

قال المِسْور بن مَخرمة:

دخلتَ على معاوية، فقال:

ما فعل طعنك على الأئمة يا مسور؟

فاستعفيته. فأقسم عليّ؛ فوالله ما تركت عيباً إلا ذكرته، فقال:

لاتبرأ من ذنب، فهل لك يا مســـور، ذنوب تخافها أن تهلك بها إن لم يغفرها الله لك؟

قلت: نعم.

قال: فما جعلك أحق أن ترجو المغفرة مني؟

فكان المسور إذا ذكره اســـتغفر له، وقال: خصمني".

المسور رجل بارز في مجتمع السياسة في ذلك

الوقت، وله أقوال عن معاوية وعن حكمه تخرج عما يريح معاوية. لهذا عندما حضر مجلسه سأله سؤالاً لم يجد مناصاً من أن يجيب عنه بما اتخذه معاوية منطلقاً لأن يحجه، وأن يبصره بما كان غائباً عنه. وما قال معاوية أمر بدهي، ولكنه عند الهوى يغيب عن الذهن، فتعديد عيوب الناس سهل، ولا يأتي في ذهن العائب أن له عيوباً. ومعاوية لم ينفِ أن له عيوباً ولكنه يرجو من الله المغفرة، فأقر المسور بن مخرمة أنه كذلك له ذنوب يسأل الله له المغفرة من ارتكابها.

هنا في هذا النص صحة الخبر تغلب على أي ظن بأن تكون القصة موضوعة، فالراوي جعل نفسه في المكان الأدنى، وأن الحق عليه لا معه، ولم يحرم معاوية من فضيلة الإقرار بالذنوب، والأمل

في الله في أن يمحوها عنه.

في هذه القصة موعظة لأهـــل كل زمان ألا ينتقدوا أحداً لنقـــص فيه، فإن المنتقد قد يكون فيه من النقص ما يزيد أضعافاً مضاعفة عما رآه في غيره[1].

(١) التذكرة الحمدونية (٧/١٧٦).

الناس والحاكم[1]

يفرح بعض الناس عندما يسمع أن الحاكم وُضع عند النقاش في مأزق؛ لأن هؤلاء ساخطون على الحاكم لسبب أو آخر، وما سمعوه عن أنه في أمرٍ ما صار صاحب اليد الدنيا، وكأن هذا الموقف أخذ بحقهم منه، ولم يسلم من هذا عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فقد أُلِّف عنه قصة تدل على أن مؤلفها كان في نفسه شيء من عمر، ونفّس عن نفسه بقطعة أدبية بهجة، تفرحه وتفرح من هو على شاكلته:

"روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعس

(١) المجلة العربية العدد ٣٧٧ جمادى الآخرة ١٤٢٩هـ يوليه ٢٠٠٨م.

بالمدينة بالليل، فسمع صوت رجل في بيته، فارتاب بالحال، فتسوَّر، فوجد رجلاً عنده امرأة وخمر، فقال:

يا عدو الله، أكنت ترى أن الله يسترك وأنت تعصيه؟

فقال الرجل: لا تعجل عليّ يا أمير المؤمنين، إن كنت عصيتُ الله في واحدة، فقد عصيتَه في ثلاث:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ (الحجرات ١٢) وقد تجسّست.

وقال: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ (البقرة ١٨٩) وقد تسوّرت.

وقال: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا﴾ (النور ٦١) وما سلّمت.

فقال عمر: فهل عنـــدك من خير إن عفوت عنك؟

قال: بلـــى، والله يا أمير المؤمنين، لئن عفوت عني لا أعود لمثلها أبداً.

فعفا عنه".

قصـــة بديعـــة تصلح أن تكـــون عظة لأهل الحسبة، ولو وُضع رجل من أهل الحسبة مكان عمر لقُبلت القصة قبولاً أحســـن، أما الآن فهي تأليف طريف، ومع هذا فبها من الخلل ما يجعلها لا تزيد عن أن تكون طرفة ترســـم صورة عما يدور في ذهن بعض المفكريـــن. وعند التحليل تتهاوى هذه القصة جزءاً فجزءاً.

جل ليس قريباً من الدين قُرْبَ عمر

المعرفة التي بدت في تصدّيه لخطأ عمر، فأينه مما في الدين عن الزنا والخمر. وكيف أحاط بكل هذه الجوانب التي افترض أنها غابت عن عمر رضي الله عنه.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه عرف عنه حدبه على الرعية، فكان يعس، وقصته مع المرأة التي كانت تطبخ الحصى لأبنائها؛ لتعللهم ليناموا معروفة، ولم يكن يتجسس، ورجل وامرأة وحدهما لا يتوقع أن ترتفع أصواتهما، بحيث تستلفت انتباه عمر، وتسترعي سمعه، إلا إذا سكرا، وهنا نزيد شكّاً في أن السكران، الموغل في السكر، يمكنه أن يأتي بهذه الحجج.

والأمر أمر شرع، ويستوجب الأمر أن تكمل خطوات معاقبة الرجل، وشهادة الحاكم، أو

حَلفه، ســـوف تُعطى اعتباراً. وخطأ عمر ليس فيه من العقاب ما يجعله يعفي الرجل والمرأة من عقاب ما ارتكبا. وعمر شجاع عندما يستوجب الأمر الإقرار بالخطأ، وكلمته مشهورة في موقف اســـتوجب أن يقول فيه: "أخطأ عمر وأصابت امرأة".

وأكاد أجزم أن القصة مؤلفة وفي وقت متأخر عن زمن عمر، وما عمر إلا مشجب علقت عليه قصـــة طريفة ألفها فكر أديب عنده من العلم ما عرض بعضه أمامنا، ولكـــن تبقى الصورة ممثلة لفكر الناس في زمن ما، وتؤكد أن الحاكم عرضة لأن يقال على لسانه ما لم يقل، ويقال عن فعله ما لم يفعل، وهذه الأقوال والادعاءات فيها بلسم لما في صدور أصحابها من حنق قد يكون بسبب أمر

تافه هم سبب الخطأ فيه، وعوقبوا عليه، فغضبوا وحَنقوا، وغَالُوا الحقيقة، ونشروا ضدها[1].

---

(١) التذكرة الحمدونية: (٧/١٦٨).

عداء متأصل[1]

للدولة الأموية أعداء، منهم من كان في زمنها، ومنهم من جاء في أزمان لاحقة، والأسباب التي تكمـــن وراء هذه العداوة معروفـــة، ومراميها معلومة، وآثارها متوقعة.

هذه العداوة تأتي في صـــور متعددة، وطرق مختلفة، وتلبس أردية فضفاضة أحياناً، وتركب مطايا يؤمل أن تكون موصلة، وللأهداف محققة.

ويتفنن قائلوها في تنويعها، ويجتهدون في تصنيفها، وتحرّي تأثيرها، وإتيانها بالنتيجة المتوخاة.

---

(١) نشـــرت في المجلة العربية: عدد جمادى الأولى عام ١٤٢٩هـــ الموافق مايو ٢٠٠٨م.

والخليفة الأموي معاوية، رأس الدولة الأموية، هو خير مشجب تعلق عليه الأقوال، وخير غرض ترسل إليه السهام، وما فيه من صفات تجعل من السهل اختيارها لتأليف ما يكون جذاباً يضمن معه القبول، ويؤصَل فيه إلى الهدف، وهنا نص في كتاب التذكرة الحمدونية يغري بالوقوف عنده، والتمعن فيه، وتحليله، والغوص على ما يوضح الجوانب التي قد تكون مداخل لرفضه، وتبيان ما وراء وضعه:

"وجّه معاوية رجلاً إلى ملك الروم، ومعه كتاب تصديرُه:

"إلى طاغية الروم".

فقال ملك الروم للرجل: ما لذي الفخر بالرسالة، والمتسمّي بخلافة النبوة، بالسَّفَه؟ أظنكم

ولّيتم هذا الأمر بعد إعواز، لو شئت كتبت:

"من ملك الروم إلى غاصب أهل بيت نبيه، العامل على ما يُكفِّره عليه كتابُه، لكنّي أتجالل عن ذلك".

من المرجّح أن مؤلف هذه القصة لم يقصد تبجيل ملك الروم، وتبيان رجاحة عقله، وما يتحلّى به من أخلاق الملوك، وترفُّعهم عن بذاءة اللسان مع أندادهم، ولكن المقصود إلصاق تهمة السّفه، وبذاءة اللسان، بمعاوية، ورسم صورة له متضائلة بجانب صورة ملك الروم.

ونَاقَضَ واضعُ القصة نفسه في هذه الأسطر المحدودة دون أن يدرك، وأعماه حرصه على إثبات غرضه مما جعله لا يدرك هذا التناقض الذي وقع فيه، ففي كلمة "إعواز" ما يوحي

بأن ملك الروم ظن أن الخليفة هو صفوة من في مجتمعـــه، وكل من في المجتمع رديء، وهو بهذا يوحي أنه لا يعرف كيف وصل معاوية إلى الحكم، وأنه لم يجئ بالاختيار، ولكن بالاضطرار، ثم يتبين من بقية حديثه أنه يعرف كثيراً عن معاوية، وأنه حاكـــم غصب حق أهل بيـــت نبيه، بل ويظهر ملـــك الروم أنه فقيه، ويعلم أن هذا العمل كفر بحكم القرآن[1].

---

(١) التذكرة الحمدونية (٧/١٦٩).

نهج في الحِجَاج[1]

في الجدل بين عالمين أو أديبين، وفي التناطح بين كبشين، وفي التطاحن بين فحلين، جاذبية؛ لحب الناس لمتابعة أمر يكون فيه عراك، وينتهي بغالب ومغلوب، ولو كان القول وعظاً هادئاً، ونصحاً خيّراً، لما جذب الناس، ولما أنصتوا له، ولو أنصتوا ملّوا سريعاً، وهو أمر مشاهد في مجالات مختلفة أقربها إلى الذهن عراك بين كاتبين في صحيفة ما، فعندما يبدأ التراشق يحرص بعض القراء، وما أكثرهم، على متابعة السهام المتطايرة

(١) نشرت في المجلة العربية بعدد ربيع الآخر ١٤٢٩هـ الموافق إبريل ٢٠٠٨م.

في الأفق، الجارحة للأديم، المدمية للأجسام.

في كتب الأدب كمّ كثير من هذا، يُغري بالمتابعة، خاصة إذا كان الحِجَاج محتوياً على طرائف، وحاملاً في ثناياه ما لا يخطر إلا في بال أديب متمكن، وقد اشتهر في الأدب العربي أناس عرفوا بالنباهة، وبالقدرة على الإتيان بما هو بديع. وكان لما أتى من بعضهم لكثرته، ولغرابته، ما قد يثير الشك في وقوع ما وصف بأنه وقع، وهو في الحقيقة لم يقع، وإنما فُرِّخ في عش ذهن الأديب، واحتضن في غرفة مريحة، ولم يكن هناك مخاض، فلا بحث ولا استقصاء، ولكنْ خيال محلق، يَغرف من أفق متناهٍ في الارتفاع والبعد والسعة.

والأصمعي ممن يأتي بالبديع، وهو مكثر، ولو كتب عنه، وعما يرويه عن البادية والحاضرة،

لجاء من ذلك حصيلة وافية. والأصمعي لا يتردد أحياناً أن يأتي بالبديع، أو الطريف، أو الغريب، حتى لو كان المشجب الذي يعلق عليه ما يرويه الأصمعي نفسه. وأرجو أن أجد مستقبلاً وقتاً أجمع فيه ما روى، وأبوبه، وأبرز الجوانب التي تعنّ لي كلما قرأت نصّاً يرويه الأصمعي أو يُروى عنه. وأمامي الآن نص فيه شيء مما قلتُه، والحِجاج والجدل ممتع، وهو من كتاب "التذكرة الحمدونية":

قال الأصمعي:

ناظر قوم من الخوارج الحسن البصري، فقال:

أنتم أصحاب دنيا.

قالوا: وكيف؟

قال: أيمنعكم السلطان من الصلاة؟

قالوا: لا.

قال: أفيمنعكم من الحج؟

قالوا: لا، حتى عَدَّدَ وجوه البِرّ، ويقولون: لا.

قال: فأراه إنما منعكم الدرهم، فقاتلتموه".

جدل متقن، تدرّج خطوة خطوة، وفي الذهن هدف، وفي النية حُسْـــن، وفي الخطة شيء من الختل، والراوي أديب متمكن، أحســـن اختيار من يروي عنه، والحسن البصري بعلمه خير من يُعلَّق عليه مثل هـــذا الخبر، وأخفى الراوي من كان معهـــم الحِجَاج، إلا أنهم قوم من الخوارج، وهم عنصر مناسب؛ لأنهم فئة مناوئة من السهل إلصاق كثير من مثل هذه الأمور الدينية بهم[1].

---

(١) التذكرة الحمدونية (٧/١٧٠).

خير الأمور الوسط[1]

قولٌ يتردد على الألسنة بلذة ظاهرة، ومواقفُ كثيرة يأتي هذا المثل منقذاً لمن احتاج إلى الإنقاذ في أمر رأى أناس أنه مجال للانتقاد، أو اللوم، أو الملاحظة.

وهو قول لا يقبلـــه الطموحون، ويرون فيه نزولاً عن درجة عليهـــمٍ ألا يترلوا عنها، أما ما دون الوسط فليس مقبولاً من أحد.

وتـــأتي بعض القصص مؤكـــدة على أن خير الأمور الوســـط، وأمامي نص قصير، ولكن فيه

(١) نشـــرت في المجلة العربية في عدد ربيـــع الأول ١٤٢٩ الموافق مارس ٢٠٠٨ بالعدد (٣٧٤).

إعمال فكـــر، وحجة بالغة، وخروج من موقف حرج، أوجبه ظرف ملزم:

"حج الرشـــيد، فلقيه موسى بن جعفر على بغلة، فقال له الرشيد: مثلك في حسبك وشرفك وتقدّمك، يلقاني على بغلة؟!

فقال:

تطأطأت عن خيلاء الخيل، وارتفعت عن دناءة العير، وخير الأمور أوسطها".

سؤال واحد من الرشيد تلقّى جوابه من أحد أبناء عمه. إن كان هذا حدث فعلاً، ولا يستبعد أن يكون حدث، فالسؤال مقبول وجوابه كذلك مقبول، فالرشـــيد وقد قدم إلى مكة لم يتوقّع من رجل من أســـرته، لما لها من شرف ومكانة، أن يلقاه على ظهر بغلة. وقد ردّ موســـى بن جعفر

ردّاً مقبـــولاً ظاهراً، ولكن قد يكون في باطنه ما لم يكن في ظاهره، فلعل موســـى أراد أن يوحي منظره بأنه في حاجة إلى رفد الخليفة، مبتعداً عن التلفظ بذلك بلسانه، والمظهر ينبئ بما عليه باطن الحال.

على أي حال هذه صـــورة تعطينا فكرة عن أدب الركوب وأدواته، وما هو مقبول، وما هو منتقد، ومن هم رُكّاب كل وسيلة[1].

(١) التذكرة الحمدونية: (١٧٣/٧).

باب في الإنصاف[1]

لي نظرة تجـــاه الحَجّاج تختلف تماماً عن نظرة عديدين من الناس، سواء من كتبوا عنه أو قرؤا عنه، فلا أراه بالقسوة التي يصفونه بها، وأعتقد أنه كان يخاف الله أكثر مما يصفونه به من تجاهل أوامره جل وعلا، وأعتقد أن بعض الأخبار التي تروى عنه، وتصفه بما يجعله مكروهاً ممن يقرؤها، ملفقة.

كان الحجاج عاملاً للخليفة في العراق، وكان العراق يموج بالفتن، وعلى رأس الفتن الخوارج،

---

(١) نشـــرت في المجلة العربية، العـــدد: ٣٧٣ في صفر ١٤٢٩هـــ/فبراير ٢٠٠٨م.

وقد تصدى لهم بجدارة، وقضى عليهم، فصار له منهم أعداء، ولمن كان يعطف عليهم، أو لمن كان ساخطاً على الدولة الأموية، وراجت القصص ضده أيام الأمويين، فوجد العباسيون فيها مادة دسمة لهم، فأشاعوها، وزادوا فيها، وصار بعضها مادة للتفكه والتندر، والزيادة والإنقاص.

من يقرأ بعض القصص عن الحجاج يجد أنها مأخوذة من قصص سابقة لزمنه بقرون، فاستفيد منها مدخلاً لقصة ركبوها على الحجاج، وغيروا معالمها، ومن هذه القصص ذهابه للصيد، وانفصاله عن جماعته، ومقابلة مصادفة لمن عند سؤاله عن الحجاج وصفه وصفاً مقذعاً، إذ لم يعرفه؛ لانفراده في هذه الصحراء، ثم توافد رجاله، وهنا يجد الكاتب الملفق مجالاً لوضع ما يراه مما ينقص

قدر الحجاج، وقد تطرقت لبعض هذه القصص فيما كتبت في أماكن أخرى.

والحجاج أوكل إليه من قبل إمام المسلمين أن يمسك زمام الأمور في بلد كثرت فيه الفتن والاضطرابات، فقام بذلك بحزم، ولعله كان محتسباً في طاعة خليفته، وفي إخماد فتن حث الله سبحانه على إخمادها. ولهذا كان ديدنه في الحكم "من لم يتحرش بنا سلم وأمن، ومن مد يده قطعناها، والذنب ذنبه". وهذه طريقة أي حاكم حازم وُكِّل إليه استتباب الأمن في أي زمن من الأزمان، فمن قام بهذا على الوجه الأكمل حكم، ومن تراخى أكلته الذئاب.

والقصة الآتية إضاءة باهرة عن الحجاج جاء القول الصائب فيها على لسان خليفة، يقدر

الأمن، ويعرف قيمة الوسائل لتثبيته، ومن يتكلم عن الألم ورجله في النار لبس كمن يتكلم ورجله في الماء:

عن معن بن زائدة أنه قال[1]: "كنا في مجلس ننتظر الإذن فيه على المنصور، فتذاكرنا الحجاج، فمنا من حمده، ومنا من ذمّه، فكان ممن حمده معن ابن زائدة، وممن ذمّه الحسن بن زيد بن الحسين ابن علي - عليهم السلام - وأذن لنا، فدخلنا على أبي جعفر، فابتدأ الحسن بن زيد، فقال:

يا أمير المؤمنين: ما كنت أحسبني أبقى حتى يُذكر الحجاج في دارك، وعلى بساطك فيثنى عليه.

فقال أبو جعفر:

---

(١) الأخبار الموفقيات، للزبير بن بكار ص ٣٧.

وما تنكــــر من ذلك؟ رجل اســـتكفاه قومه فكفاهم، والله لوددت أني وجدت مثل الحجاج حتى أستكفينه أمري، وأنزله الحرمين حتى يأتيني أجلي.

قال، فقال له معن بن زائدة:

يا أمير المؤمنين، إن لك مثل الحجاج عدداً من أصحابك، لو استكفيتهم كفوك.

قال: ومن هم؟ كأنك تريد نفسك؟

قال: وإن أردتها فمه؟

قال: كلا، لســـت هناك، إن الحجاج ائتمنه القوم، فأدى الأمانة، وائتمنت فخنت الأمانة.

[الأخبـــار الموفقيات للزبير بـــن بكار (ص ٣٧)].

هـــذه إضاءة في صالح الحجاج، تدل على أنه

ينفذ سياسة الدولة لتثبيت الحكم، والقضاء على الفتن، وهي مهمة كل شريف ائتمن على عمل، وسار فيه مجتهداً، والإضاءات في صالح الحجاج كثيرة.

والتعليقات يمكـــن أن تكثر على هذا النص، فتشمل إدراك المنصور للمصلحة، بصرف النظر عن نظرته إلى الأفراد لقد بجل الحجاج، وسـّـفه بعنف رأي أحد أبرز رجاله علناً.

حيلة[1]

يتفتّق ذهن الإنسان أحياناً عن حيلة يكسب من ورائها ما قد لا يكون من حقه أن يكسب، ونجاح الحيلة تتوقف على ذكاء المحتال، وإتقانه دراسة جوّ الاحتيال، ونفس المحتـــال عليه. والمحتال يكون في يقظة تامة، وتدبر للأمر، وتقليبه على أوجهه المتعددة حتى يصل إلى مرحلة الإتقان التي يرضى عنها رضىً كاملاً، وتؤدي الغرض الذي يطمح إليه، والمحتال عليه في غفلة تامة عما يحاك له في الخفاء، وما ينصب له من شباك دون علمه،

(١) نشـــرت في المجلة العربيـــة بالعدد ٣٧٢ في محـــرم ١٤٢٩هـــ/فبراير ٢٠٠٨م.

والمحتال وهو يرتب عناصر نجاح الحيلة لا ينسى المســـرح ونصبه على الصفة التي يريد أن تمثل على مسرحه التمثيلية. وما ينجح القصد في هذا أن يكون المحتال عارفاً معرفة تامة بمن يريد أن يحتال عليه، خاصة إذا كان من أســـرته، وأكثر للإتقان إذا كانـــت الحيلة بين زوجين، والقصة الآتية تعطي نموذجاً متقناً لما وصفناه، وما حدث هو بلغتنا الحديثة "مقلب"(١):

"كان المغيرة بن عبـــدالله بن أبي عقيل عاملاً للحجاج على الكوفة، وكان يلقب (أبا صفية)، ويغضب منها، فاســـتعدت امرأة على زوجها، فأتاه صاحب الدعوى عند المساء، (فأعلمه) .

قال: نعم، أغدو معك.

(١) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ص: ٣٩.

فبات الرجل يقول لامرأته:

لو قد أتيت الأمير لقلت:

يا أبا صفيـــة، إنها تفعل كذا وكذا، فأمر بك من يوجعك ضرباً، وجعـــل يكرر عليها: يا أبا صفية.

فحفظت المرأة الكنية، وظنت أنها كنية الأمير.

فلما تقدمت إليه قالت:

أصلحك الله يا أبا صفية.

فقال: أبو عبدالله [عافاك الله].

فأعادت عليه، فقال: أبو عبدالله.

قال: فأعادت.

فقال لزوجها: خذ بيدها، فإني أظنها ظالمة".

[الأخبـــار الموفقيات للزبير بـــن بكار (ص ٣٩)].

لقد نجحت الحيلة، وجـــنى القائم عليها ثمرة ذكائه، وحصيلة اجتهاده، وفهمه للنواحي النفسية عند الناس، وبها أدرك أن إغضاب القاضي جزء من انحراف الحكم عن مجراه الطبيعي، "فالغضب ريح تهب على سراج العقل فتطفئه". وقد عرف كيف يصل إلى إغضاب القاضي، واســـتغل هذا العنصر خير استغلال. ومع هذا كان يعرف جيداً زوجه، فاســـتفاد من معرفته لهـــا، ومعرفة نقطة الضعـــف عندها، وهي أنها شـــبه ببغاء تكرر ما عودت لسانها عليه، ولم يكن عندها من الذكاء ما يجعلها تدرك ما حاول القاضي أن يدلها عليه، وكرر ذلك حتى يئس، وحـــتى ثارت أعصابه، فأصدر حكمه القاطع في صالح الزوج.

سياسة ناجحة[1]

جاء معاوية للخلافــة في وقت من الأوقات الصعبة في الحقبة الإســلامية الأولى، فقد دخل حرباً جعلت وضعه يتأرجــح؛ لأن من أمامه لم يكــن على الهامش في زمنه، بــل كان في بؤرة الضياء، لما كانت عليه دعواه من القوة.

قيل عن معاوية شيء كثير عن حكمته، وعن صلابة سياسته، وعن بعد نظره، وعن شدة تحمله، وعــن إدراكه لزمنه وأهل زمنــه، وعن نباهته وضياء بصيرته، وعن فراســته وحسن تصوره،

---

(١) نشــرت في المجلة العربية، العدد: ٣٨٦ ربيع الأول عام ١٤٣٠هـــ/ مارس ٢٠٠٩م.

وصواب تقديره، يرى في الأمر غير ما يرى فيه الناس، ويتصرف في ضوء ما يستقر عليه رأيه، كانت سياسته التي يتبعها تنجح، لمقامه بين قومه وعشيرته، في ضوء ما كان لوالده في الجاهلية، ولمعاملة الرسول ﷺ لوالده عند فتح مكة، وما جعل له من ميزة لم تعطَ لغيره، ولاختياره - عليه صلوات الله وسلامه - لمعاوية في أن يكتب الوحي، دليل ثقافة معاوية، ومترلته بين شباب قومه. في ضوء ذلك كله جاءت حكمته وجاءت في ضوء تجربته الطويلة في حكم الشام، وما يتبعه، وما يأتي من إدارة الجيوش على ثغور بلاده، ومقدرته على السير في عمله أيام الخلفاء الراشدين المتتابعين قبل الفتنة.

هناك مظهر ناطق في سياسته للناس في حكمه،

يدل على فكر ثاقب، ومقدرة على ضبط النفس فائقة، وعلى بعد نظر لما جعله هدفاً له، يرخص كل شـــيء عنده، ويهون كل شيء معه؛ لأن ما يهمه هو النتيجة، فهو في جهاد مع نفسه، ولكنه - وهـــو الحاكم - حكم نفســـه قبل أن يحكم رعيته، ومن حكم نفسه فلن يخيب أبداً في حكم الآخرين؛ لأن مقاومة شـــهوات النفس أشد من مقاومة رغبة الآخرين.

هذا المظهر يتجلى في النص الآتي المحكم:

"قال معاوية:

لا أضع ســـيفي حيث يكفيني ســـوطي، ولا أضع ســـوطي حيث يكفيني لساني، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت. كنت إذا مدوها خلّيتها، وإذا خلّوها مددتها".

مثل هذا النص عن سياسة الحاكم لا يأتي إلا من إنسان سليم الفطرة، بيئته منذ صغره صقلته لأن يكون حاكماً، وزاد بهاء هذه السياسة بالتجربة، وحسن التدبر، ونفاذاً لبصيرة، وإهانة القليل مقابل كسب الكثير.

معاوية في هذا النص أقنع نفسه في أن التحدي للوصول إلى النجاح ليس في القوة الرعناء، ولا في التصرف الغاشم المبتذل، بل عسف نفسه على ركوب الصعب، لتأتي النتيجة متكاملة الفائدة، هو لا يقفز الحواجز، ولا يرهق قدرته، ما دام السهل يكفي، فلما ذا يركب الصعب؟ وهو يسوس قوماً ليس من السهل سياستهم، ولقد جرب سياسته هذه، فوجدها أنجح من سياسة غيره الغاشمة، ولأن صورة هذه السياسة واضحة

في ذهنه لم يكفِه القـــول الأول عنها، بل أردفه بمثل ملموس، واختياره للشـــعرة، على ضعفها ودقتها، اختيار عبقري، وأصبحت هذه السياسة الحكيمة، بنصها هذا، على ألســـنة الناس، وقد يكون إعجاب كثـــير من الناس بمعاوية جاء من هذه وأمثالها، مما يرســـم الأنـــاة بأبهى صورها، ويرســـم صورة لمعاوية تمثل الهـــدوء المتكامل، والرزانة الفائقة، والتحمل المحمود.

الرأي أقوى سلاح(١)

الرأي نتاج الفكر، والفكر نتاج العقل، وهذا يعني خيراً يأتي منه خـــير، وخيراً يأتي من خير، وهذا ضياء من ضياء في ضيـــاء، ونتيجة ذلك سعادة وهناء للفرد والمجتمع.

كم من حرب أوقدهـــا قلة العقل، وكم من حرب تفوديت بالرأي، وكم من تجارة خُسرت من فساد الرأي، ونجحت وازدهرت من سداد الرأي، وكم من صداقة جاءت من رأي مضيء، وكم من عداوة بلغت ذراها من ظلمة الرأي.

---

(١) نشـــرت في المجلـــة العربية لشـــهر ذي القعـــدة ١٤٣٠هـــ/نوفمبر ٢٠٠٩م.

وإذا كان الفرد يكسب في أمور معيشته من حسـن الرأي، فالحاكم وهو يتصرف في أمور دولة يكسب من الرأي السليم، ويسعد بذلك، ويسعد مجتمعه، بإذن الله، إذا كان ممن يتصيدون الرأي الحسـن، سـواء كان ذلك بتفكيره أو الاستعانة بمن عرف عنه تحري الرأي المنير.

ومعاوية بن أبي سفيان عرف عنه ارتكازه على الرأي، وتحريـه الصواب فيه، وهو الذي عرف عنه أنه يتبع سياسة حكيمة اختطها، ومؤداها:

"لو كان بيني وبين الناس شـعرة ما انقطعت إذا جذبوها أرخيتها، وإذا أرخوها جذبتها".

نعم الرأي، ونعم الحكمة، ونعم الفكر، ونعم العقل الموصل إلى ذلك. ولاشتهار معاوية باعتماده الرأي سياسة له في محاولة اجتناب العنف أصبح

بعض المثقفين لا يسلم أن كل ما قيل عنه لم يكن لغيره، ولكن هناك شـرفاً للقول أن يعلق على مشجب شـريف مثل معاوية. ولكن لا دخان بلا نار، لا بد أن الغالب على معاوية هو احترام تأثير الرأي، واتخاذه وسـيلته الناجحة، وسوف نضيف هنا قصة رأي لمعاوية آتى أكله، كما أراد له معاوية، والقصة هي[1]:

"أن عبدالرحمن بن حسـان كان يشبب بابنة معاوية، ويذكرها في شعره، فقال الناس لمعاوية: لو جعلته نكالاً؟

فقال معاوية: لا، ولكـني أداويه بغير ذلك، فـأذن له، وكان يدخل عليه في أخريات الناس، فأجلسه على سـريره معه، ثم أقبل عليه بوجهه

---

(١) الأخبار الموفقيات للزبير البكار ص: (١٩٤).

وحديثه، ثم قال:

إن فلانة - لابنة له أخرى - عاتبة عليك.

قال: وفي أي شيء؟

قال: في مدحك أختها وتركها.

قال: فلها العتـبى، وكرامة، أنـا ذاكرها، وممتدحها.

فلما فعل، وبلغ ذلك الناس قالوا:

قد كنا نرى أن تشبيب ابن حسان بابنة معاوية لشيء، فإذا ذلك عن رأي معاوية وأمره".

الحزم صديق[1]

الحزم صديق الحاكم، الراعي لحكمه، الساعي لتثبيتــــه، المصمم لإراحة مجتمعــــه، العارف متى يستعمل الحزم والمدرك لجوانب الاستفادة منه.

لقـــد لجأ الحكام المدركون لفلســـفة الحكم، وطبيعة طرق النجـــاح فيه أن يختاروا ممثلهم في الجزء المضطرب في بلادهم، الصعب في طبيعته، حاكماً حازماً، يتخذ الخطوة العادلة الحازمة، فلا يتراخى ولا يتأخر؛ لتكـــون عبرة لمن ينفع معه الاعتبار، وكان معاوية وعبدالملك بن مروان من أبرز حكام الأمويين في هـــذا الجانب، فمعاوية

---

(١) نشرت في المجلة العربية لشهر شوال ١٤٣٠هـ/أكتوبر ٢٠٠٩م.

وجد صعوبة في حكـــم العراق؛ لتجمع القبائل فيه، وطبيعة الظرف الذي يمر به، فرمى العراق بزياد، وكان من أبرز صفات زياد الحزم، وعدم التراخي في الجزاء، وجعل العقاب عبرة للناس، تمنع المقدم على تمرد، وتطمئن المواطن المسالم.

ومثل معاوية في اختيـــار زياد، عبدالملك بن مروان في اختيار الحجاج بن يوسف، حازماً قوياً بعدل، من سالم ســـلم ومن حارب ندم، مدحه المنصفون، وذمه المتحيـــزون، وأغلب الانتقاد جاء متأخراً في زمن العباسيين، وصار الحجاج في أدب هذه الفترة كبش الفداء لنقد الأمويين.

وفي كلا حكمي هذين الرجلين أمنت السبل، وازدهرت العراق، ووُضِعت أســـس اجتماعية واقتصادية استفاد منها من جاء بعدهم.

وهناك صورة مضيئة تُري فضيلة الحزم الذي أخذ به زياد النـــاس، وتُري مدى فرحة الخليفة بصـــواب رأيه في توفيق الله له باختيار زياد، وما جاء على يديه، مما توضحه القصة الآتية:

"قدم قادم على معاوية، فقال له:

هل من مُغرِبة خبر؟

قال: نعم، نزلت بماء من مياه العرب، فبينما أنا عليه أورد أعرابي إبله، فلما شـــربت ضرب على جنوبها، وقال: عليك زياداً.

فقلت له: ما أردت بهذا؟

فقال: هي سُـــدى، ما قام لهـــا راعٍ منذ ولي زياد.

فسرّ معاوية بذلك، وكتب به إلى زياد".

لماذا نذهب بعيداً، ونغوص في حقب التاريخ،

وعندنا مثل حي في سياسة الملك عبدالعزيز، وما اتبعه في أول حكمه من إرسال أمراء حازمين ثبتوا معه وبتوجيهه وبعون الله أطناب خيمة الملك في مناطق عرفت بصعوبة إدارتها وحكمها.

وهكـــذا ينجح الحكم الحازم العادل، ومادام هناك عدل فهناك قصد حســـن، ونية حســـنة، والنية مطية.

ثمن الأمان[1]

أمان المرء في بيتــــه، وأمانه في عرضه، وأمانه على حياتـــه، وأمانه في رزقه، وأمانه في تقلبه في الحياة في ليله ونهاره، من أسباب توافر السعادة لـــه، وهي همّ الحاكم الخَيّر في توفير هذه الأمور لمن يلي أمورهم، والســـعي مجتهداً في أن يتلمس الأسباب لذلك، ومن أبرز ذلك اجتهاده في أن يرى هذه الأســـباب مهيأة فيمـــا يراه من أمور الناس تحت سمعه وبصره، أما ما هو بعيد عنه في أرض تبعد عن سمعه وبصره، فيجتهد في أن يختار لها أميراً يؤمل فيه أن يكون كفيئاً لتنفيذ سياسته

(١) نشرت في المجلة العربية لشهر رمضان ١٤٣٠هـ/سبتمبر ٢٠٠٩م.

التي يرى فيها تحقيق ما يرجوه.

والحاكـــم، وهو يقلب الأمور على وجوهها، ويرسم صورة لما يريد أن يختاره من الرجال يضع من يقع عليـــه اختياره تحت الاختبار، يدرس ما يراه منه، ويسأل عنه، ويحاول أن يتصور ما سوف يأتي منه إذا هو اختير للمنصب الذي شغل ذهن الحاكم، وأراد أن يجد من يضعه أمامه في المنطقة الـــتي أراده لها، ويحرص على دقة الاختيار كلما صارت المنطقة بعيدة، أو أهلها شديدي المراس، وكثيري الشـــغب، صَعْب ضبطهم، ويحتاجون إلى كبـــير جهد لوضعهم على المحجة التي تريح الحاكـــم، وتزيح عن كاهله عبئـــاً ثقيلاً، وكان العراق همّاً كبيراً للخليفة الأموي في الشام، كان همّاً كبيراً لمعاوية، فرمـــى العراق بزياد بن أبيه،

ووكل أمرهم إليه، ثقة في حزمه، وتأكداً من مقدرته، ورأى فيه ما جعله يطمئن إلى ما يأتي منه.

وعبدالملك بن مروان اختار الحجاج بن يوسف، الحازم القوي، فكفاه أمر الخوارج، وثبّت له العراق بأوتاد من فولاذ، وحمد له عبدالملك هذا، فقد أراحه من هم ثقيل، وعبء باهظ، وصداع مزمن، مما جعل أعداء الحجاج، وقد عجزوا عن أن ينالوا منه، يبثون الإشاعات عنه في المجتمع، ويملؤون الصفحات فيما بعد بما حاولوا أن يضمنوا به تشويه سمعته، وقد قبل المتأخرون ذلك عندما قرؤوه فيما بعد، ولم يناقشوا ما كتب عنه نقاشاً علميّاً، ولم يفحصوه فحصاً دقيقاً، ولم يزنوه بميزان العقل بتؤدة

وتمعّن. لقد كانت العاطفة هي المسيطرة كما أراد لها العباسيون، الذين خلفوا الأمويين، وهذا فيه تثبيت لحكمهم، وأسرفوا فيه، حتى كان هو شغلهم الشاغل، وكان الشعوبيون طربين لهذا، وساعدوا في وضع القصص الزائفة، وبث ما يؤلفونه منها، وكان لهم ما أرادوا.

ولكن يُطل بين آن وآخر نص قد يكون ما جاء فيه قد حصل فعلاً، أو أن يكون رد فعل من أصدقاء الأمويين، يعدلون به الكفة، والنص قابل للرأيين، على أنه واضح في أن الحاكم يطرب عندما يعلم أن من نصبه وصل إلى الغاية التي يرجوها، وهذا النص يوضح ذلك، وهو موصل للهدف الذي جيء به من أجله:

"قدم قادم على معاوية، فقال له:

هل من مُغرِّبةٍ خبر؟

قال: نعم. نزلت بماء من مياه العرب، فبينا أنا عليه أورد أعرابي إبله، فلما شربت ضرب على جنوبها، وقال:

عليك زياداً.

فقلت له: ما أردت بهذا؟

فقال: هي سدى ما قام لها راعٍ منذ ولي زياد.

فسرّ معاوية بذلك، وكتب به إلى زياد".

لقد سرّ معاوية بهذا، وله الحق أن يسرّ إذا كانت القصة صحيحة؛ لأنها تعني أنه نجح في هدفه الأصل خير نجاح، فقد ثبت له حسن اختياره لأحد رجاله المهمين، وتأكد من حسن ظنه فيه، ولم ير أن يبقي هذه الفرحة له وحده،

بـــل أخبر بها زياداً؛ ليبتهج كذلك، وليبقى على سياســـته هذه، إذ ثبت أنها ناجحة، ومن المؤكد أنها مع تكرار التجارب ستكون أنجح وأنجح في المستقبل.

من هموم القضاة[1]

يمر على القضاة في عملهم مع المتقاضين أمور متباينة، بعضها محزن، وبعضها فكه، بعضها سهل، وبعضها شائك، بعضها واضح، وبعضها معقد، بعض الخصوم ذكي، وبعضهم ســاذج، بعضهم نبيـه صادق، وبعضهم محتـال ومضلل. وعلى القاضي أن يتعامل مع كل هؤلاء بروح القاضي المؤتمن على أمور الناس؛ لمسؤوليته الكبرى أمام الله.

وخلافـاً لبقية الناس، فعلى القاضي أن يبتعد

(١) نشـرت في المجلـة العربية، العـدد ٣٩٦ محـرم ١٤١٣هـ/يناير ٢٠١٠م.

عن طبيعة البشر المعتادة، عليه أن يجعل مزاجه صافياً دائماً؛ لأن المزاج غير الصافي يخرج من الجو الذي يجب على القاضي أن يعيش فيه، فيجب أن يترك هموم البيت في البيت، ومعها مشكلات الزوج والأولاد، والمال وقصوره عن الحاجة، عليه أن يأتي إلى مجلس القضاء بوجه طلق مهما استفزه الخصوم، ومهما خرج بعضهم عن جادة الأدب، وعليه ألا يغضب؛ لأن الحكم لا يأتي صائباً في ظل الغضب.

سعة البال يجب أن تكون خِدْن القاضي، والصبر رفيقه، وأن يضع القاضي نفسه مكان الخصم؛ ليعرف من موقعه ما قد لا يراه من موقعه هو.

وأمامي الآن قصة تبين موقف أحد القضاء

مع خصومٍ الاعوجاج فيهم وفي أقوالهم وفي ادعاءاتهم، أبعد ما يكون عن الاستقامة، وهذه هي القصة:

جاء مزيد بامرأته إلى القاضي يخاصمها في نفقتها، فبكت حين جلست، فقال له القاضي:

ويحك، اتقِ الله، فإني لأحسبك ظالماً.

قال: وبأي شيء عرفت؟ قال: فأرسل إلى منزلها، فإن لم تجد فيه خبزاً قد يبسته فصدقت.

قالت: أما خبز فعندي خبز، ولكن لا يشتري لي سويقاً.

قال: انظر، تطلب مني السويق مع الخبز، وقد حبس أبو جعفر العطاء، ومنع البحر، وهي طالق ثلاثاً البتة، لئن عاش أبو جعفر خمس سنين إن لم تنسَ صنعة السويق، فلا تحسنه.

فتوفي أبو جعفر لثلاث سنين من يوم حلف بطلاقها، فأتت به القاضي، فقالت:

حلف بطلاقي إن مات أبو جعفر لتنسينّ عمل السويق، فلم أنسَه.

قال: إنما حلفت إن عاش خمس سنين.

قال القاضي: ترانا نسينا عمل السويق في سنتين؟

قال: فإني على هذا حلفتُ، فما يدريكم لعلكم تنسون، أو لعلكم تموتون فلم يرَ عليه طلاقاً"[1].

حرص الأقدمون في ثنايا كتبهم عن الأدب والتاريخ أن يسجلوا بعض مواقف القضاء وقصص للقضاة مع الخصوم تخطف البصر،

(١) الأخبار الموفقيات، للزبير بن بكار، ص: ٢٨٠.

وتجذب الانتباه؛ لما فيها من أنوار مشعة، تكتسح دُجُنّات من الظلام، وهي سجال غالباً بين عالم وجهلاء، أو متجاهلين محتالين، وكثيراً ما أحث أصدقائي ومعارفي من القضاة في زمننا هذا إلى تسجيل المواقف التي تستحق التسجيل، وتستحق الوقوف عندها، والتأني في النظر فيها في كتب تنشر؛ ففيها دروس وعبر لعامة الناس، وفيها علم للقاضي الشادي الجديد. ولا إحراج في هذا، إذا كان يُخشى أن تلمس بعض الناس في أمورهم الخاصة، فيمكن للقاضي ألا يُصرح بأسماء من تلمسهم القضية، وإنما يرمز إلى أسمائهم بحروف أو أرقام.

ويمكن لبعض الباحثين لدرجة الماجستير أو الدكتوراه أن يتتبعوا ما ورد في الكتب القديمة،

ويدرســوه ويحللوه، ويبينوا مواقع الضعف أو القوة فيه، وما حدث فعلاً، وما ألف تأليفاً، ممثلاً روح العصر، واتجاه القضاء والقضاة حينئذ.

قناعة بالإجبار[1]

ابن آدم في شبابه وقوته طموح لأن ينال كل ما يمتع كل خلية في بدنه، لا يحصل على بغية إلا ويتطلع إلى أخرى، ولا يأخذ حظه وافياً من متعة ما من متع الحياة، إلا التفت يميناً ويساراً لأخرى، يسعى جاهداً أو غير جاهد لحيازتها، وهذا لا يتعارض مع تركيزه على واحدة دون أخرى، والتركيز على واحدة جاذبيتها تغلب الأخريات.

ثم يتقدم به الزمن، ويتنازل عن بعض مواقع

(1) نشرت في المجلة العربية، عدد ٣٩٥ ذو الحجة ١٤٣٠هـ/ديسمبر ٢٠٠٩م.

طموحه تدريجاً، ويصد عن بعض ما كان يجري خلفه يوماً بعد يوم، ثم يبدأ يصفّي مواقع الطموح موقعاً موقعاً حتى لا يبقى إلا القليل منها، وكل تصفية تأتي على كثير مما كان يشغف به، ويجري خلفه بنهم، ويتابعه بشـــغف، ثم يأتي يوم يقول فيه مثلما قال أحـــد خلفاء بني أمية عندما عدد ما كان يجـــري خلفه، لما فيه من لذة، وما يحيطه من متعة، قال ما معناه: إنه ركب الفاره، وتبطن الكاعب، فلم يجد ألذ من مجالسة الرجال، وهنا رجـــل طلق الدنيا إلا من لذتين، لم يكن يأبه بهما في شـــبابه بجانب لذات أخرى، هي أولى، وهي أحق، وهي الطاغية، وهي المسيطرة:

يقول الزبير بن بكار(١):

---

(١) الأخبار الموفقيات، للزبير بن بكار، ص: ٢٧٩.

"قال المنصور لإسحاق بن مسلم العقيلي:

ما بقي من لذتك؟

قال: أخ أشتهي معه القلّة طول الليل، ودابة أشتهي معها طول السفر".

يريد صديقاً يرتاح إليه، يسامره ويساهره طوال الليل، بعد أن كبر، وصار لا ينام من الليل إلا أقله، يريد أن يكون بجانبه أخ يعلّله ويسليه، ويملأ عليه وقت الليل الطويل، والساعات الموحشة منه، ويريد دابة مريحة كذلك، بحيث إنه إذا ركبها لم تتعبه وإن طال به السفر، وما أكثر حاجتهم إلى الدابة المعسوفة الهينة اللينة، المطواع، لا ترضّ عظمه، ولا تنهك لحمه، ولا تجهد أضلاعه، ولا تجفل، ولا ترمح، ولا تعض.

هاتان هما اللذتان اللتان بقيتا لهذا الشيخ

الصـــادق في قوله، المجرب للحيـــاة، المختصر الجواب لسؤال مختصر محدد، وكأني بالمنصور يهز رأســـه موافقاً؛ لأنه إما أن يكون في مثل وضعه، أو أنه مقبل على أيام مثل أيامه.

والناس في هذه الســـن إما رجل صادق مثل إســـحاق، أو كاذب مكابر، يدّعي ما الناس به عليمون، ولا يخدعهم قولـــه، ولا تغطيته على ضعفه وعجزه.

نور على نور[1]

تقبل القصة عند القارئ، أحياناً؛ لما فيها من ابتكار، ويذهل عما إذا كانت موضوعة، أو واقعة، فإن تذكر كثرة الوضع في ذلك الزمن، والهدف منه، ورأى شـــيئاً من هذا في القصة التي أمامه مال إلى أنها موضوعـــة، وبقي إكباره لواضعها، والفكرة المبتكرة التي جاء بها، مســـتغلاً الوضع السياسي في ذلك الزمن، وواضعاً إطاراً متقناً، يتماشى مع الصورة التي أراد أن يرسمها، لتخدم غرضه، وتدفع بالفكرة، أو الأفكار، التي أراد أن

(١) نشـــرت في المجلة العربية، العدد ٣٥٦ رمضـــان ١٤٢٧هـــ الموافق أكتوبر ٢٠٠٦م السنة ٣١.

يقدمها، وينشرها على الملأ، وصار من حظها أن تطوي القرون، وتصل إلى أجيال متتالية، زاهية نضرة، لم يبهت نورهـــا، ولم يخمد أوارها، وما فارقها شبابها، بقيت مسقط الإعجاب، ومهوى طالبي الطرافة، والأمور الغريبة.

وهذه قصة ينطبق عليها هذا القول، اختارها المقّري؛ لتكـــون ضمن كتابه "المختار من نوادر الأخيار، ص: ٧٠":

"حدّث الأمين: أحمد بن موسى، قال:

ما رأيت رجلاً مِحْجَاجـــاً، أثبت جناناً، من رجل وُقِّع فيه عند المنصـــور، أنَّ عنده ودائع، وأموالاً، وسلاحاً، لبني أمية.

فأمر المنصور حاجبـــه: "الربيع"، بإحضاره، فأحضر بين يديه، فقال له المنصور:

قد رُفع لنا أن عندك ودائع، وأموالاً، وسلاحاً، لبني أمية، فاخرج لنا منهـــا، واحمل الجميع إلى بيت المال.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، أأنت وارث بني أمية؟

قال: لا.

فوصي أنت؟

قال: لا.

قال: فلِمَ تسأل عن ذلك؟

فأطرق المنصور ساعة، ثم قال:

إن بني أمية ظلموا النـــاس، وغصبوا أموال المســـلمين، فأنا آخذها، وأردهـــا إلى بيت مال المسلمين.

فقال الرجل: تحتاج، يا أمير المؤمنين، إلى بَيِّنَة،

يقبلها الحاكم أن المال الذي لبني أمية هو الذي في يـــدي، وأنه هو الـــذي اغتصبوه من الناس، وأمـــير المؤمنين يعلم أن بني أميـــة كانت معهم أموال لأنفسهم غير أموال الناس التي اغتصبوها - على ما يزعم أمير المؤمنين - فسكت المنصور ساعة، ثم قال:

يا ربيع، صـــدق الرجل، ولم يجـــب لنا عليه شيء.

ثم قال للرجل: ألك حاجة؟

قال: نعم.

قال: ما هي؟

قال: أريـــد أن تجمع بيني، وبين الرجل الذي سعى فيَّ إليك، فوالله، يا أمير المؤمنين، لم يكن لبني أمية عندي مال، ولا سلاح، وإنما حضرت بين

يدي أمير المؤمنين، ورأيت ما هو فيه من العدل والإنصاف، واتباع الحق، واجتناب الباطل، وأن هذا لا يجوزه، أيقنت أن هذا الكلام الذي صدر مني هو أنجح، وأصلح لما سألني عنه، وأقرب إلى الخلاص.

فقال: يا ربيـــع، اجمع بينه وبين الرجل الذي اتهمه.

فلما وقف عليه، أمسكه، وقال:

هذا الـــذي أخذ لي خمس مئة دينار، وهرب، ولي عليه سطور بها.

فأحضر إلى أمير المؤمنين، فاستنطقه، فأقرّ بالمال في ذمته، فقال الرجل:

يا أمير المؤمنين، قد وهبتها له من أجلك، وله عندي خمس مئة دينار لحضوري مجلسك.

فاستحسن المنصور فعله، وكان في كل وقت يقول:

يا ربيع: ما رأيت من حَجَّني مثله".

لا بد من وقفة تدبر، فالرجل لم يكن يعرف أن المنصور سيوسّع له صدره، حتى يتمادى في الجدل، والمنصور بغلظته، وهي مما يقتضيه بدء دولة قامت على أنقاض دولة كبرى، ولو كان الأمر أمر مال لهان الأمر، ولكن أمر السلاح مختلف، وفي هذا حجة للمنصور.

والمكيال الذي يعطى به المال مكيال واسع أكثر من أن يكون مقبولاً، والمتوقع أن يعفي الرجل خصمه من خمس مئة دينار التي في ذمته، وفي هذا كرم متناهٍ، أما أن يعطيه خمس مئة دينار أخرى فأمر أبعد من المستبعد، حتى لو

كان الكاتب وشَّى السبب برداء مطرز جميل، وهو ادعاؤه عرفان الجميل لتسبب الرجل في التشرف بالحضور في مجلس أمير المؤمنين، وكان بالإمكان أن يكون تنازله عن خمس المئة الأولى لهذا المعروف الذي أسداه إليه بتسببه في مقابلة الخليفة.

فخر ولا فخر[1]

المفاخـــرة من الأمور التي تغري بعض الناس، أفراداً أو فئـــات، أو أقطاراً، أو أصحاب مهن، ولا تـــأتي المفاخرة إلا ومعهـــا تقليل من قدر ما ينظر إليه على أنه منافس، وهذا يأتي تصريحاً، أو تلميحاً.

وهـــذا أحياناً يؤدي إلى أمور عظام، ســـواء ماديّاً، كأن يؤدي إلى مضاربة بالأيدي، أو مبارزة بالسيوف، أو مسابقة في ميدان، وهذا أشرفها، أو مطاولة بمال، أو ممتلكات.

---

(١) نشـــرت في المجلة العربية بالعدد: ٣٥٥ شـــعبان ١٤٢٧هـــ الموافق: سبتمبر ٢٠٠٦م السنة: ٣١.

وأحياناً يكون من نتائجه أمور ليست مادية، ولكن، وهي معنوية، قد توصل إلى ما هو أسوأ، وفي النهاية تدخل نطاق الأذى المادي.

لهذا كانت المفاخرة، والحط من أقدار الآخرين، وسيلة عند المبارزة، لإذكاء العداوة، حتى تصل المبارزة إلى منتهاها، في الضرر والأذى، فتكون المفاخـــرة أدت الغرض منهـــا، وجاءت بما هو متوقع، تماماً مثل مصارعة الديوك.

والمفاخـــرة، والازدياد فيها، أو الانتقاص من الآخريـــن، لا حدود لأقســـامها، والميادين التي تجول فيها، فقد تكـــون بين دولتين، أو قطرين، أو شخصين: أديبين، أو عالمين، أو صاحبي مهنة، نجارة أو تجارة، أو صناعـــة، ويأتي كل فريق بما عنده، بأسلوب مؤثر، وألفاظ منمّقة: في القصة

الآتية، إن صدق مدعٍ أنها وقعت أنها وقعت فعلاً، وهي من كتـــاب: "الاختيار من نوادر الأخبار. ص: ١١٨". ما يمثل ذلك:

"افتخـــر قوم من أهل اليمن عند هشـــام بن عبدالملك، فقال لخالد بن صفوان: أجبهم.

فقال خالد: هم بين حائك بُرد، ودابغ جلد، وسائس قرد، ملكتهم امرأة، ودلّ عليهم هدهد، وغرّقتهم فأرة".

فخر القوم الذين مـــن اليمن عند عبدالملك المقصود بـــه أن يعرف قدرهـــم، فيجزل نائلة لهم، لكنهم أهل الجنوب، ولا بدّ لأهل الشمال أن يقللوا من هذا الفخـــر؛ ليقنع أهل الجنوب بتواضـــع الهِبة، وليس هناك خير من خالد، وهو من عرف بفصاحته، وليس هناك خير من السجع

وسيلة للتأثير، وسهولة الحفظ، وطيران الخبر مع الركبان، أما الحقيقة فتضيع وسط الحماس، ولا أحد يلتفت إليها، أو يذكرها، فقد غطَّاها دخان المفاخرة.

نور في القلب[1]

عندما يسطع في القلب نور المعرفة يشع فيه ما يحمده صاحبه، وغيره، والفقه في الدين من نعم الله على المرء، فعن طريقه يجد طريق الإيمان الصحيح، ومتى تم هذا ضمنت السعادة في الدارين بعون الله.

بعض الناس يخزن المعلومات، ولكنها مثل البضاعة في المخزن، لا تفيد إذا لم يأتِ من يعالجها معالجة متبصرة يحوّلها من مادة خام، إلى مادة نافعة، أكلاً أو لباساً، أو عربة ركوب، أو

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد: ٣٥٤ السنة (٣١) في شهر رجب ١٤٢٧هـ الموافق أغسطس ٢٠٠٦م.

أداة نفع.

وقصة الرجل، الـــذي عجز عن أن يَفْقه ابنه الدروس التي يلقيها عليه مدرسه، معروفة، فهذا الرجل لما أعياه الأمر، ذهب إلى صديق يستشيره، فأخبره بأن، في بلدة غير بعيدة، مدرساً متخصصاً في تعليم أمثال ابنه. فذهب إليه في بلدته، واتفق معـــه على أن يبقي الولـــد أمانة عنده لمدة عام، وســـوف يعود إليه بعدها؛ ليرى مدى ما كسبه ابنه من العلم.

وبعد أن مر العام زار الوالد المعلم، فأخبره أن ابنه يخزن المعلومات جيداً، ولكنه لا يستطيع أن يتصرف فيها، أو يستدعيها عندما يلزم ذلك. ولما رأى من وجه صاحبه أنه لم يفهم قصده، وأن معانيٍ الجمل تداخلت، وعُمّيت، أمهله الرجل قليلاً،

واستدعى التلميذ، وقبل أن يأتي هذا أخذ المعلم بيده خنفســـاء، كانت تدبّ بجانبه عند الحائط، وأخفاهـــا بيده، وقال للتلميذ، غير النجيب، في يدي حيوان، له أربعة أقدام، وقرنان، فما هو؟

قال التلميذ: بقرة.

فقال المدرس لوالد الطفل، أرأيت؟ إن ابنك يعرف جيداً أن للبقرة أربع أرجل، ولها قرنان، ولكنـــه لم يدرك أنه لا يمكـــن أن "تُضَمَّ عليها" راحة اليد!

خلاف هـــذا تماماً الفقيه النابه، الذي لم يجهد نفسه ليجد جواباً لمشـــكلة ظن صاحبها أن له فيها منتصراً على رجال الدين، وهذه القصة في كتاب: "المختار من نوادر الأخبار، ص: ١١٥"! وهي كالآتي:

"ســـأل رجل فقيهاً عن الخمر، أحلال هي أم حرام؟

فقال له: حرام.

قـــال الرجل: ما تقـــول في العنب، والزبيب والتمر، أحلال هي أم حرام؟

قال: حلال.

قال: فما تقول في السُّكَّر، والقند، والعسل؟

قال: حلال.

قال: فأي شيء حلل هذا، وحرّم هذا؟

قال الفقيه: أرأيت لو أخذتُ كفّاً من تراب، فلطمت به وجهك، أو صدرك، أكان يؤلمك؟

قال: لا.

قال: فلو أخذتُ كفّاً مـــن ماء، فلطمتُ به وجهك أو صدرك، أكان يؤلمك؟

قال: لا.

قال: فلو أخذتُ كفّاً من تبن، فلطمتُ به وجهك أو صدرَك، أو ظهرَك، أكان يؤلمك؟

قال: لا.

قال: فإن أخذتُ التراب والماء والتبن، فجمعتها، وجبلتها، ووضعتها في الشمس، أياماً، ثم ضربت بهن وجهك، أكان يؤلمك؟

قال: نعم.

قال: فهكذا، إذا جُمع هذا، وعُتِّق حرم، وإذا جُمع هذا، وعُتِّق آلم.

عن الحَجَّاج[1]

الحجاج بن يوسف الثقفي حاكم اختلف الناس فيه، وافترقوا بين مادح وقادح، المادحون يقولون: إنه حافظ للقرآن، ولاؤه للخليفة منقطع النظير، حازم في حماية الدولة من الخوارج، وأنه هين لين مع المسالمين، وأما القادحون فيقولون: إنه ظالم غاشم، يأخذ بالظنة، ويستطيب القتل، ولا يخاف الله طرفة عين. وقد رجح هذا الرأي عند كثير من المؤرخين بسبب قتاله مع الخوارج، واستئصال شأفتهم، وقد طوع العراق للخليفة

---

(١) المجلة العربية، العدد ٣٩٩، شهر ربيع الآخر ١٤٣١هـ/ إبريل ٢٠١٠م.

في الشام، ولم يكن تطويع العراق سهلاً. وعداء مـــن كتب عنه لم يقتصر على هذا الجانب، وإنما لمسوا جوانب شخصية للحجاج لا تصمد أمام الفحص، ولا تماشي العقل عند التدبر والتبصر، وبعضها افتعل افتعالاً بكامله، وبعضها كان عن غيره، وليس له إلا تغيير بعض أجزائه.

والنص الآتي محل جدل بين الاثنين، كل يأخذه على أنه في صفه، والنص هو:

"حدثني الزبير قال:

حدثني أبو الحسن المدائني قال:

قال الحجاج بن يوســـف: ثلاثة لو أدركتهم لقتلتهم: مقاتل بن مسمع، فإنه أعطى مالاً كثيراً بفارس، فأجفل الناس عليه، فقال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ (الصافـــات، ٦١)، تـــأول

الفاسق كتاب الله على غير تأويله.

وعبدالله بن زياد بن ظبيان التميمي، فإنه صعد المنبر، فتكلم بكلام أعجب قومه، فقالوا: أكثر الله فينا مثلك، قال: لقد سألتم ربكم شططاً. (وفي رواية: لقد كلفتم الله شططاً).

وأبو سمال الأسدي، فإن ناقته شردت، فقال: لئن لم يرددها ربكم لا أصلّي صلاة. فتعلق خطامها بعرفجة، فجاء حتى أخذها، فقال: علم ربكم أنها صِرِّي" (أي يمين قوية)[1].

المادحون للحجاج يقولون: إن قوة إيمان الحجاج بربه جعله يغضب لله، ويختار أقسى عقوبة أمام هؤلاء الملحدين، وهو لم يفعل فقط لأنهم ليسوا تحت يده، ولكنه أصدر حكمه الذي

---

(١) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار، ص: ٣٨٧.

يرى فيه جزاءً وفاقاً بحق.

والقادحون في الحجـــاج يقولون: إنه في هذا القول ظهرت روح الحجاج الدموية، وحبه للقتل، مع أن هناك وســـائل أخرى للتصرف مع هؤلاء بإحضارهم مثلاً، وتبصيرهم بفداحة ما تلفظوا به واستتابتهم، وأخذ رأي الشرع فيهم.

ياترى، مَنْ مِـــنْ هذين الفريقين على حق في نظرته للحجاج؟!

الفصاحة سلاح[1]

عندما يعجز أحدنا عن رد معروف من تفضل عليه، ووجد أحدنا أن الشكر لا يفي بحق صاحب المعروف علينا، يلجأ إلى الدعاء له؛ فالله أقدر منا على إعطاء المكافأة الجزيلة، وإثابة المتفضل، وقد وجد أحد الفصحاء أمام المعروف الضافي الذي أنعم به أحد الوجهاء، مستجيباً باقتدار وابتسام على تقبل الشروط التي حددها صاحب الطلب، أن بإمكانـــه أن يرد المعـــروف المادي بكلمات فصحى منتقاة، شـــعر أنها، في عرف تلك الأيام

---

(١) الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ص: ١٤٨. نشـــرت في المجلة العربية في العدد ٣٧١ ذو الحجة ١٤٢٨هـ/ يناير ٢٠٠٨م.

تفي بالغرض، إن لم تزد عليه؛ لأنها إقرار شـــاهر مـــن رئيس قبيلة، تبجيـــلاً لقبيلة أخرى، قد لا تكون المودة سائدة بينهما.

هـــذا إذا لم تغلبنا طبيعة النقـــد لما قد يكون بين القبائل من المفاخرة، ومحاولة الارتفاع على حساب قبيلة أخرى. والقصة كما يلي:

"حدثنا أحمد بن سعيد الدمشقي، قال:

حدثني الزبير، قال:

حدثني ابن أبي بكر المؤمّلي، قال:

حدثني عبدالله بن أبي عبيدة بن محمد بن عمار ابن ياسر، قال:

"دخل عمرو بن معدي كرب على مجاشع بن مسعود في داره، وكانت داره شارعة على رحبة بني تميم، عند المسجد الجامع، فقال:

أجزني بجائزة مثلي، واحملني على فرس مثلي، ومر لي بسلاح مثلي.

فأمر له بعشرة آلاف درهم، وحمله على فرس عتيق، وأمر له بسـلاح تام. وخرج من عنده، فجعل يمر على حلق المسجد، فيقولون:

يا أبا ثور، كيف وجدت أخا بني سليم؟

فيقول: بارك الله على حي سـليم، ما أصدق في الهيجـاء لقاها، وأثبت في النـوازل بلاها، وأجزل في النائبات عطاها. والله لقد قاتلتهم فما أجبنتهم، وهاجيتهم فما أفحمتهم، وسألتهم فما أبخلتهم".

لقد مات عمرو ومات مجاشع، وفني العطاء، وبقيت كلمات عمرو إلى اليوم، والله وحده يعلم إلى متى سوف تبقى.

من عمق النفس[1]

الناحية النفسية تقوم بدور فعال في حياة الأفراد، وقد تعم مجتمعهم، والإحاطة بها قد لا تتيسر، ولا تدرك بسهولة؛ لعمق النفس، وتشعب جوادها، ولكن التجربة الطويلة، المحاطة بالعقل، وصفاء الذهن، ودقة الإقراء تبعد منها القريب، وتسهل الصعب.

وفي تجارب السابقين ما يفيد اللاحقين، إذا كانوا من طلاب المعرفة، ومن متقنصي الحكمة، ومن يحرصون على تقصير العناء على أنفسهم

(١) نشرت في المجلة العربية (العدد ٣٧١) ذو الحجة ١٤٢٨هـ/يناير ٢٠٠٨م.

بالاكتفاء بما مر على غيرهم مما حمدوه أو لم يحمدوه. وكان مثل هذا معروفاً عند الأقدمين، فمنهم من سجل تجاربه، وأعطى زبدها، وهو يعرف أن هناك متلقين ينتظروها، ومتلهفين يستبطئوها إذا تأخرت، ولعل هذا من أسباب الثروة الأدبية التي ورثناها من أزمان سبقت، ليس لكتابها ما يشغلهم عنها مثل كتاب اليوم، وقراء هذا الزمن.

أمامي نص يصور عصارة فكر درس النفس الإنسانية، وتوغل في عمقها، وأعطانا فكرة فيها، وكيف يمكن أن ينجح الإنسان في قصده، ويصل إلى مبتغاه إذا راعى ما جاء في زبدة القول الذي أدلى به، وهذه هي القصة:

"حدثني الزبير قال حدثني إبراهيم بن المنذر

الخزامي، عن أبي عمرو المدائني، قال:

عرضت لي إلى سلم بن قتيبة حاجة، وهو والي البصرة، فلقيت بعض أصحابه، فسألته القيام بها، فضمنها. ومكثت أختلف إلى باب سلم أياماً، والرجل يمطلني، ويذكر أن الكلام في حاجتي لم يمكنه بعد. فبينما أنا في الباب ذات يوم، إذ خرج سلم راكباً، فوقعت عينه عليّ، وقد كانت بيني وبينه مودة متقدمة، فدعاني، فقال:

أتطالب قبلنا شيئاً يا أبا عمرو؟

فقلت: نعم، حاجة حمّلتها فلاناً منذ أيام.

فقال: إن كنتُ لأظن، يا أبا عمرو، أنك أحزم مما أرى. إذا كانت لك إلى رجل حاجة فلا تُحملنْها من له طعمة، فإنه لن يؤثرك على نفسه، ولا تحملنها كذاباً، فإن الكذاب يقرِّب

لك البعيد، ويبعِّد لك القريب، ولا تحملنها أحمق؛ فإنه يجهد لك نفسه، ثم لا يصنع شيئاً".

صدق سـلم، لقد أعطى نتيجة فكر صائب، وحصيلة ذهن ثاقـب، وكل جملة تدل على أنه قد لبس لباس الغـوص، ونزل إلى عمق النفس الإنسـانية، ولهذا جاءت هذه الإضاءات، ولا يجد المتأمل فيها خللاً، بل لو لاحظ حياة الناس جيداً، وأمعن في مراقبتهم، وتابع سيرهم، وصلة بعضهـم ببعض، لوجد هـذا واضحاً في تعامل بعضهم مع بعض.

النفاق ذنب عظيم[1]

ليس لأن النفاق فقـــط في الغالب يبنى على الكذب، ولا لأنه استهزاء بالمنافَق في حقه، ولا لأنه إهانة لفكره، وامتهـــان لعقله، ولكن كل هذا ومعه جرم أكبر، وهو النية المبيتة للكســـب المستور، والاستفادة غير المعلنة، وما النفاق إلا أداة من أدوات الكسب الحرام، سواء كان ذلك الكسب مادة، أو تقرباً، أو بهدف سرور المنافق تمهيداً للاقتراب منه من أجـــل وظيفة، أو غير ذلك، مما لا يحصى من المكاسب.

---

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد ٣٦٠ محرم: ١٤٢٨هـ/فبراير ٢٠٠٧م السنة (٣٢).

والنية لله وحده؛ لأنه يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور، فإذا بيّت المنافق نية أخفاها، وسعى في ألا يأتي بما يدل عليها، فهو قد غفل عن ربه، وما يعلمه، وإن لم يكن غفل، وإنما أقدم على النية السيئة وهو ذاكر أن الله بما أخفى عليم، فقد ارتكب إثماً يركسه في النار، إن لم يتب، ويقبل الله توبته.

لا أملّ، فيما أكتب، أو أتحدث، عن أهمية النية، وما تأتي به النية الحسنة، وما تستحقه النية السيئة، وتحدثت عن ذلك في مقالات سابقة، أحسّ أني أديت واجبي نحوها، ودللت على ما قلت، وأتيت بأمثلة عما ينويه المرء في جانب الله، من تفريج كربة، أو مساعدة مادية لحمل عبء من أعباء الحياة، أو فتح طريق للإنسان

المحتـــاج، يلج منه إلى ما يوسّـــع عليه ما ضاق من أمر، وادلهمّ من عسرة، حتى لو لم يتم الفعل المنْوي، وحال دون تحقيقه حائل، فإن الجزاء من الله يـــأتي وافياً، وكأن ما رَمَت إليه النية قد نُفّذ كما نُوِي.

وعندما أرى جهداً مبذولاً، ومالاً منفقاً انتهى بالإخفاق، أتحرّى عنه نيـــة صاحبه، هل كانت لغير الله، أو أنه أضاع جهده ليبتليه أيشـــكر أم يكفر.

أثار هذا، في هذا الحديث، قصة طريفة، مشبعة بالنفـــاق الذي نجـــح في أول الأمر، ولكنه جاء بمصيبة عظمى لصاحبـــه، والقصة فيها عصارة فكر، ومنطق متقن مُقْنع، وقد يكون ذلك مأتى الشـــك في أنها مؤلفة، ولم تحدث، ولكن هذا لا

يخل بما جئنا بها لأجله:

وهذه قصة تتكرر روايتها في كثير من كتب الأدب[1]، وسوف ننقلها هنا من كتاب: "الهفوات النادرة" لغرس النعمة أبي الحسن محمد بن هلال الصابي[2]. صفحة (١٠١).

"حدث أبو العباس المبرد قال:

دخـــل خالد بـــن صفوان علـــى أبي العباس السفاح، فوجده خالياً، فقال:

يا أمير المؤمنين، أنا أترقب، مذ تقلدت الخلافة، أن أجدك خالياً، فألقي إليك ما أريده.

قال: فاذكر حاجتك.

---

(١) ومنها "كتاب الأذكياء" ص: ٧٢. وكتاب "ذيل ثمرات الأوراق".

(٢) تحقيق الدكتور صالح الأشتر. من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. طبع عام: ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

قال: يا أمير المؤمنين، إني فكرت في أمرك، فلم أرَ ذا حالة في مثل قدرك أقلّ استمتاعاً بالنساء، ولا أضيق فيهن عيشا منك؛ لأنك قد ملكت على نفسك امرأة واحدة، واقتصرت عليها، فإن مرضَتْ مرضْتَ، وإن غابت غبت، وإن غضبت حرمت. إنما التلذذ باستطراف الجواري، ومعرفة اختلاف أحوالهن، والاستمتاع بهن، فلو رأيت يا أمير المؤمنين، الطويلة البيضاء، والسمراء اللفّاء، والصفراء العجزاء، والغَنِجة الكحلاء، والمولدات من المدنيات، والملاح من القندهاريات، ذوات الالسنة العذبة، والقدود المهفهفة، والأصداغ المزرفنة، والثدي المحققة!

وجعل خالد بعذوبة لفظه، واقتداره على وصفه يزيد في قوله.

فلما فرغ من كلامه قال له:

والله يا خالد، ما سلك سمعي قط كلام أحسن من هذا، فأعد عليّ قولك، فقد حرّك مني ساكناً.

فأعاد عليه خالد بأحسن مما ابتدأه، ثم انصرف عنه، وبقي السفاح مفكراً عامة نهاره، إذ دخلت عليه أم سلمة المخزومية زوجته (وكان قد حلف ألا يتخذ عليها، ووفى). فلما رأته دائم الفكر، كثير السهو، قليل النشاط، قالت:

إني أنكرك يا أمير المؤمنين، فهل حدث ما تكرهه، أو أتاك خبر ارتعت له؟

فقال لها: لم يكن من ذلك من شيء.

قالت: فما قصتك؟

فجعل يوري عنها، فلم تزل به حتى حدّثها.

قالت: فما قلت لابن الفاعلة؟

قال لها: سبحان الله! رجل نصحني تسبينه!

فخرجت من عنده متميزة غضباً، وأرسلت إلى خالد بجماعـــة من مواليها، وغلمانها العجم، ومعهم الكافركوبـــات، وأمرتهم ألا يتركوا فيه عضواً صحيحاً.

قال خالد: وانصرفت وأنا على غاية السرور بما رأيت السفاح عليه من إعجابه بما ألقيته عليه، فقعـــدت على بابي أتوقع صلته، فلم أشـــعر إلا بالغلمان، وتحققت مجيئهم بالجائزة، حتى وقفوا على رأسي، وسألوني عني، فقلت:

هأنذا.

فسبق بعضهم بهراوته، فأهوى بها إليّ، فوثبت ودخلـــت داري، وغلّقـــت بابي، واســـتترت،

وعرفت هفوتي وزلتي في فعلي وكلمتي، وعلمت من حيث أُتيتُ، ومكثت أياماً مستتراً، فلم أشعر ذات يوم إلا بجماعة من خدم السفاح قد هجموا عليّ، فقالوا:

أجب أمير المؤمنين.

فأيقنت بالهلكة، فركبت معهم وأنا بلا دَم، فلما دخلت عليه، وسلّمت، فردّ عليّ سكنت نفسي بعض السكون، وأومأ إليّ بالجلوس، فجلست، ونظرت فإذا خلف ظهره باب، عليه ستور قد أرخيت، وأحسست بحركة خلفه.

فقال لي: يا خالد، لم أرَك منذ أيام، فاعتللت عليه.

فقال لي: ويحك إنك وصفت لي آخر يوم كنت عندي فيه من أمر النساء والجواري ما لم

يخرق سمعي قط مثله، فأعده عليّ.

قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، أعلمتك أن العرب اشتقت اسم الضرتين من الضر، وأن أحدهم لم يكن عنده من النســـاء أكثرُ من واحدة إلا كان في جهد وكد.

قال لـــه الســـفاح: ويحك لم يكـــن هذا في كلامك.

قـــال: قلت له: بلـــى، والله لقد أخبرتك أن الثلاث من النساء كأثافي القدر تغلي عليهن.

قال الســـفاح: برئت من قرابتي من رسول الله ﷺ إن كنت سمعت هذا منك في حديث.

قلت: بلى، وأخبرتك أن الأربع من النســـاء شر مجموع لمن كن عنده، إنهن يهرمنه، وينغصن عليه عيشه، ويشيبنه قبل حينه.

قال: ويلك والله ما سمعت هذا قط منك، ولا من غيرك.

قلت: بلى، يا أمير المؤمنين، لقد قلتُ.

قال: ويلك تكذبني؟

قلت: يا أمير المؤمنين، فتريد قتلي؟

قال: مرّ في حديثك.

قلت: وأخبرتك أن أبكار الجواري كالرجال، ولكن لا خصي لهن.

قال: فسمعت ضحكاً شديداً وراء الستر.

قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، وأعلمتك أن عندك ريحانة قريش، وأنه لا يجب أن تطمح نفسك إلى شيء من النساء غيرها.

قال خالد: فسمعت من وراء الستر: "صدقت والله ياعمـــاه، ولكن أمير المؤمنـــين غيّر وبدّل،

ونطق عن لسانك بغير ما ذكرته له".

فقال السفاح: ما لك قاتلك الله، فما رأيت قط أبهت منك.

قال: فخرجت من حضرته، فلم أصل إلى متزلي حتى وجّهت إليّ أم سلمة ثلاثة تخوت، فيها أنواع الثياب، وخمسة آلاف درهم".

خالد بدا وكأن النفاق مهنة له، فقد نافق الخليفة، ورجا أن هذا يقربه من الخليفة، فيكسب من هذا من الخير ما لا ينقطع، ولكن نيته الكاذبة جاءت له بالوبال، وغسل الدم بدم، وخرج من نفاق أمير المؤمنين إلى النفاق لزوجه، فكسب منها أقل مما كان يؤمل من الخليفة.

ويبدو أن خالداً من أولئك الذين يجرون مع أول فكر يطرأ عليهم، مما قد لا يكون صائباً،

وغيره بعـــد الأناة والتفكير خـــير منه، والحذر مطلوب تجاه أول فكرة تأتي إلى الذهن عند بدء عمـــل، أو تعديله، أو رد غائلة، أو التغلب على مشكلة. وقد يكون للفكرة الأولى بريق يُعشي عن غيرها مما هو أفضل منها، وأكثر صواباً، فلا يتبين ذلـــك إلا بعد أن يقع المرء ضحية للفكرة الأولى.

وقد جاء صاحـــب كتاب "الهفوات النادرة" في صفحة (٣١٩) بما يدل على أن هذه الصفة من صفات خالد، وهي تعضد ما مر من تسرعه في النفاق للخليفة دون أن يحســـب حســـاباً لما حدث بعد ذلك من غضب زوجه، وعقابها له، واضطراره غلى محو الزلة بما لا يشرفه. وهذا هو النص المعضد:

"كان خالد كثير الهفوات، لا يتأمل ما يقول، ولا يفكـــر فيما يبديه لســـانه، وإنما هو قائل ما خطر بباله، ومن ذلك أن سليمان بن علي سأله عن ابنيه جعفر ومحمد، فقال:

كيف إحمادك جوارهما، يا أبا صفوان؟

فقال مسرعاً عجلاً:

أبو منذر جار لهـــا وابن بُرثُن

فيالكِ جـــاري ذلـــة وصغار

فأعرض سليمان عنه، وكان حليماً كريماً.

وكان الحسن يقول:

لســـان العاقل من وراء قلبـــه، إذا عرض له القول نظر فيه، فإن كان له قال، وإن كان عليه أمسك. ولسان الأحمق أمام قلبه، فإذا عرض له القول قاله، له أو عليه". صفحة: ٣١٩.

صدق الحسن، والقصتان السابقتان تشهدان أن لسان خالد كان أمام قلبه؛ لأنه كما رأينا عندما عرضت الفكرة قالها دون أن يعرضها على قلبه وفكره، ويمحصها، ويرى هل كل ما فيها نافع، أو أن هناك ضرراً من التلفظ بها، وإن كان هناك ضرر فهل يرجح على النفع، أو النفع يرجح عليه، وعندما تتضح الصورة يقدم المرء على القول أو يحجم. ولولا أن سليمان بن علي حليم كريم لأمر بسحبه وإخراجه مهاناً، هذا إذا لم يضربه "حتى تقول الهامة اسقوني". رجل يسأل عن جيرة ابنيه، ويتوقع أن يسمع مدحاً يسرّه، ولكنه سمع ذمّاً متناهياً، فجيرة أحدهما ذلة، وجيرة الآخر صغار، ولكن شاهد الشعر أغرى خالداً، وأعشاه عن أن يفكر فيما هو أسلم.

عدم التوفيق[1]

يهتم المرء بأمر، فيأخذ بتلابيب ذهنه، ويستولي على تفكيره، ويديره في رأســـه، وينظر إليه من جانـــب العاطفة التي أملته أساســـاً، فيغفل بهذا الانشغال عن جوانب أخرى، هي عند التبصر، وعمق التفكـــير، أولى بالالتفات. ثم عندما يبدأ بتنفيذ ما أعـــده في ذهنه يفاجأ بما يزلزل كيانه، ويهز اتزانه، ويوقظه من سدرة أخذت بتلابيبه، ولم تعطِه فرصة أن يتأنى ويفكر، وعادة ما يحدث هذا مع من يفكر بعاطفة، ويستوحي قلبه، دون

(١) نشـــر في المجلة العربية بالعدد: ٣٧٠ لشـــهر ذي القعدة ١٤٢٨هـ/ ديسمبر ٢٠٠٧م.

أن يعمل عقلــه، ويجعله دليله وهاديه فيما يجب أن يقدم عليه، أو يتأخر عنه، والقصة الآتية خير مثل على هذا[1]:

لما مــات محمد بن يحيى العلــوي صلى عليه المأمون، وكنــت قريباً منه، ودخل قبره، وعليه سيفه وقلنسوته وطيلسانه، وأخذ برأسه، فأعانوه حتى وضعه في لحده، ورأيت دموعه تسيل على خده، وكان معه في القــبر داود بن أبي الكرام الجعفي، فكلمه لما رأى من رقته، وذكر حاجتهم، فغضب المأمون وقال:

هذا موضع ذا؟!

وانقطع بكاؤه، فقال:

---

(١) الأخبــار الموفقيــات، للزبير بن بكار ص: (٧٠) (عــالم الكتب تحقيق الدكتور سامي مكي العاني (١٤١٦هـ/١٩٩٦م).

ها هنا ولد الرشيد، وولد الهادي، وولد المهدي، وولد المنصور، فإذا نظرت في أمرهم، وأصلحت شأنهم، فأنت رجل من المسلمين، وهم أولى بذلك منك.

راوي القصة مصعب بن عبدالله (الأخبار الموفقيات ص: ٧١).

لقد انتهز داود فرصة ما بدا من عاطفة من المأمون، فقفزت إلى ذهنه منفعة نفسه، وسيطرت الفكرة على ذهنه، وعزلته عن المحيط الذي هو فيه، وجعلته لا يفكر إلا فيما يهمه، ولم يقلب الأمرعلى جوانبه، أو يحاول أن يتصور ما سيأتي من رد. كان فكره مركزاً على هدفه، ومصلحته أعمته عما يتحرز منه ويحذر، فوقع فيما وقع فيه. والخيبة غالباً تكون في صف من يكون ضحية

العاطفة، وإهمال الفكر، والفكر هو صاحب الحق في مثل هذه الأمور.

ماذا وراء هذا النص[1]

هذا باب من أبواب الحيرة يُفتح أمام القارئ، وهو يفكر في العوامل المتقاطعة الطرق في التناحر السياسي في زمن الأمويين والعباسيين. والحيرة تأتي من قبول النص على أنه أصيل، ووقائعه حدثت كما روي، أو أنه زيد فيه أو أنقص، أو غُيِّر فيه أو بُدِّل، أو أنه من أساسه مؤلف مبتدع، وأنه لم يحدث البتّة إلا في ذهن مؤلفه وواضعه.

وتلوح في الأفق دلائل على أن النص صحيح، وأخرى على أنه باطل، ولكلِّ دليل بريق جذاب،

---

(١) نشر في المجلة العربية شهر رمضان ١٤٢٨هـ الموافق أكتوبر ٢٠٠٧م بالعدد رقم ٣٦٨.

ولكل دليل جانب مظلم منفِّر، وطلب الترجيح هو الذي يأتي بالحيرة.

وهنا نص مـــن هذه النصـــوص، البديعة في فكرها المتقنة في منطقها وحسن تأليفها، الهادية في تركيبها على المعاني المقصودة، ولكن هل يبقى هذا الجمال، ويثبت أمام التمحيص:

"قال معاوية لأبي الأسود[1]:

بلغـــني أن علياً أراد أن يدخلك في الحكومة، فعزمت عليك أي شيء كنت تصنع؟

قال" كنت آتي المدينة، فأجمع ألفاً من المهاجرين وألفـــاً من الأنصار، فـــإن لم أجدْهم تمَّمتهم من أبنائهم، ثم استحلفهم بالله العظيم:

المهاجرون أحق أم الطلقاء؟

---

(١) التذكرة الحمونية، (١٦٣/٧).

فتبسم معاوية، وقال:
إذن والله ما كان اختلف عليك اثنان".

النزاع بين الإمام علي ومعاوية معروف، ومع كلٍّ أنصار، ولكلٍّ مؤيدون، ولكلٍّ من هؤلاء وهؤلاء حجج في تفضيل أحد الرجلين على الرجل الآخر، وقد امتلأت الكتب التي وصلتنا بما يبين وجهة نظر كل من أنصار الطرفين.

والنص يدل على أن أنصار عليّ مؤمنون إيماناً ثابتاً قويّاً لا يتزعزع بأنه أحق بالخلافة من معاوية، والسبب الرئيس في هذا القول أن عليّاً من المهاجرين السابقين، أمّا معاوية فمن الطلقاء الذين لم يسلموا إلا بعد أن أحكم الطوق على رقابهم.

وأنصار معاوية إن كانوا هم الذين وصفوه

فقــــد أرادوا أن يؤكدوا ما تواتر عن معاوية من حلم متناهٍ، وتسامح منقطع النظير.

ولكن يبقى أمامنا أمر يَبْرُزُ طالباً ألا ينســـى، فمعاوية عرف عنه الذكاء المفرط، والنباهة التي تجعلـــه يحدس ما يدور في الأذهـــان، فما دامت صفات الدهاء فيه متوافرة ألم يحدس ما كان لدى أبي الأسود من حجة فيما لو طلب منه أن يكون محكّماً بين علي ومعاوية؟

وإن كان حدس ذلك، ولكنه مصمم أن يسمع ما سمع من أبي الأســـود، فمن غير الحكمة، ومما يجانب الدهاء، أن يكون ســـأل أبا الأسود هذا السؤال علناً في مجلسه على رؤوس الأشهاد؛ لأن هذا ليس من صالحه، والأولى أن يكون السؤال خفية وبين الاثنين فقط. فإذا كان القول قيل في

خلوة، فمن الراوي؟ يستبعد أن يكون معاوية، وإن كان أبا الأسود، فلنا حق الشك في روايته؛ لأن ميزان المدح له رجح على معاوية، والمستفيد أبو الأسود وحده، ويعضد الشك في وضع هذا الخبر أن مثل هذا الجواب لا يأتِ إلا من متأمِّل، قد فكّر في الأمر كثيراً، إلا إذا كان قد فكَّر فيه من قبل، أو سمعه ممن همّه الأمر وقت التحكيم، عندما كانت القضية في عنفوانها.

ألم أقل: إن هناك حيرة، وأي حيرة!

نور وديجور

في تاريخ العرب قصص طريفة قد لا يدانيها في وقتها ما يماثلها في آداب الأمم الأخرى، بل لا يقترب منها في رسم صور بهجة للمجتمع العربي الإسلامي، مما لا تزال بعض مظاهره قائمة اليوم، وهذه القصص الجميلة، والصور الباهرة، ترقد كاسدة في ثنايا الكتب القديمة، ومن هذه الكتب ما لا يزال مخطوطاً، أو مفقوداً دلّ عليه اقتباس في كتاب متأخر، ومنها ما وجد طريقه إلى التحقيق، والطبع والنشر، ففاح عبقه، وبهر ورده وزهره، وأصبح محط الإعجاب، ومادة الالتهام، لما فيه من طرافة في أحداثه، أو عظمة،

أو أخبار في التاريخ تسـد ثغـرات لا تزال في حاجة إلى سدّ.

هذه القصص قد يكون بعضها مؤلفاً ومتخيلاً، وله أهداف أخفيت في ثناياه، يمكن للمتبصر أن يحدسها، وللمتدبر أن يغوص إلى أعماقها، فيعرف ما وراء نحلها، وأسباب وضعها، وقد لا تكون القصة منحولة بكاملها، ولكن أدخل في وسطها، أو في بدئها، أو في نهايتها، ما أكد ما فيها، أو حولها عن خط سيرها، ومجرى هدفها، إلى ما هدف إليه مُدخِل الزيادة، أو التحريف. وقد يكون كل ذلك (النحل أساساً، أو الزيادة فيه، أو تحويل مجراه) هو لفائدة فئة، أو لمضرها، أو لمدح قبيلة أو هجوها، أو لترويج مذهب، أو النيل منه، أو لإضاءة قناديل أمام حاكم، أو

شـــخص بارز، أو إطفاء مـــا أضيء من فعله في مجتمعه.

وتكاد كل قصة، وكل طريفة من الطرائف، تنصب على شـــيء من هذا، وتخدم الغرض فيه. وكانت هذه الوسيلة: (القصة، والشعر، والمثل أحياناً أو الحكمـــة)، هي الإعلام لذلك الزمن، وكان لها تأثيرها. وكانت تنشـــر وتقبل رغم ما يدخلهـــا من مغالاة، أو خرافة أحياناً، ويُتغاضى عـــن هذه المغالاة أو الخرافة للمتعة والتســـلية، ولأجل بهجة الســـمر، وتزجية الوقت. ويصفو جزء كبير من هذه القصة، ويشـــعر القارئ أن القصة حقيقة، وأنها قد وقعت فعلاً، وأنها تليق بما عرف عن أشخاصها، وحينئذ تكتمل لها عناصر لذة المستمعين، أو القارئين.

ومن هذه القصص ما أخذ طريقه إلى التدوين؛ لأن فيه ضرباً على أوتار العاطفة، ودغدغةً للقلوب، وتحريكاً للشعور، وتذكيراً بما قد يكون في أذهان الناس مما مرّ بهم مما يتمنون أنه انتهى بما انتهت إليه القصة، وقد اخترت في هذا المجال قصة فيها ضياء وظلمة، ضياء شع من أنفس ملأى بالخير، وحب الناس، والحفاظ على مدارج المروءة، والصعود على سلمها حتى القمة، دون التفات إلى ما قد يكون هناك من أخطار، قد تكون جسيمة، فقد تصل إلى السجن المهين، أو قطع الرأس. بطل هذه القصة رجل ذو مقام عند الخليفة، إمام المسلمين، والخليفة رجل حازم، والأمر يختص بالأمن، وكان بإمكان الخليفة أن ينفعل، ولا يذكر إلا ما يراه من مصلحة الدولة،

والركائز التي تقــوم عليها، وقد ينظر إلى الأمر من زوايا لم تخطر ببال مرؤوسه الذي أقدم، بجرأة متناهية، على ما قد يرى الخليفة أن فيه وســيلة لزعزعة الخلافة، إمــا بنجاح الخارج عليها، أو التســاهل في الخروج اقتداءً باللين الذي قوبل به هذا الخارج، الــذي آواه وضلله هذا العربي المســلم، جرياً على ما تقتضيه المروءة، وعلى ما يتطلع إليه مجتمعه. ومن القصة نســتطيع أن نستشــف ما دار داخل النفــوس مما دار على الألســنة، ونعرف الأرض التي كان يقف عليها ممثلو المسرحية الثلاثة:

"ســعى رجل من أهل الكوفة في فساد دولة المنصور، فعلم به، وجعل لمن أدركه، ودلّه عليه، مئة ألــف درهم. فأقام الرجل حيناً مختفياً، حتى

مضّه الاختفاء. ثم ظهر في مدينة السلام، فبينما هو يمشي في الشـــوارع، إذ رآه رجل من أهل الكوفة، فعرفه، فأخذ بمجامع ثيابه، ونادى:

هذا طِلبة أمير المؤمنين.

فبينما الرجل علـــى تلك الحالة، وقد اجتمع الناس عليه، إذ سمع وقع حوافر الخيل من ورائه، فالتفت، فإذا هو "معن بن زائدة"، فقال:

يا أبا الوليد، أنا في جيرتك.

فوقف، وقال للرجل الذي هو معلق به:

ما شأن هذا؟

قال: هذا بغية أمير المؤمنين، الذي هدر دمه، وجعل لمن دل عليه مئة ألف درهم.

فصرخ معن، وقال: دعه.

ثم قال: يا غلام، اردفه.

فأردفه خلفه، وساق.

فصاح الرجل، وقـــال: أيحال بيني وبين طلبة أمير المؤمنين؟

فنادى بأعلى صوته: ارجع عنه.

ولم يـــزل عائطاً (صائحاً باكياً) إلى أن وصل باب أمير المؤمنين، فنادى بأعلى صوته:

نصيحة لأمير المؤمنين

فأمر المنصور - رحمه الله - بإحضاره، فدخل عليه، وأخبره الخبر، فأمر بإحضار "معن"، فأتته الرسل، فدعا "معن" بنيه وعبيده، وقال:

"لا تُسلموا هذا الرجل ومنكم أحد يعيش".

ثم سار إلى المنصور، فدخل، وسلّم، فلم يردّ عليه.

فقال: يا معن، أتجير علينا عدونا؟

قال: نعم، يا أمير المؤمنين.

قال: وتعتذر بنعم أيضاً.

واشتد غضبه.

فقال معن: يا أمير المؤمنين، بالأمس بعثتني إلى اليمن، مقدّم الجيش، فقتلت، في طاعتك، في يوم واحد، عشـــرة آلاف نفس، ولي مثله كثير، أما رأيتني أهلاً أن تجيروا لي رجلاً واحداً، اســـتجار بي، ودخل مترلي؟

فسكن غضب المنصور، وقال:

قد أجرنا من أجرت يا أبا الوليد.

قـــال معن: فإن رأى أمـــير المؤمنين أن يصله بصلة يعلم بها موقع الرضـــا منك عنه، فإنه في غاية السوء من خوفه.

قال: قد أمرنا له بخمسين ألف درهم.

قال: يا أمير المؤمنـــين، إن صلة الخلفاء على قدر جنايات الرعيـــة، وإن ذنب الرجل عظيم، فأجزل له العطية.

قال: يا معن، قد أمرنا له بمئة ألف درهم.

قال: عجّلها، يـــا أمير المؤمنين، فإن خير البرّ عاجله.

فأمر المنصور بتعجيلها، فأحضرت بين يديه.

فأحضر "معن" ذلك الرجل، وقال له:

خذ صلـــة أمير المؤمنين، وقبـــل يده، وإياك ومخالفة الخلفاء في أرض الله.

فأخـــذ الرجل المال، واســـتغفر الله تعالى، ثم ذهب، وقد أمن على نفسه، وهو شاكر لمعن بن زائدة، على فعله معه من الخير والمعروف.

هذه قصة متقنـــة الحبك، تمثل حوادثها روح

ذلك العصر، فيها من ملامحه السياسية، وما عرف عن وجهاته من المروءة، ومن حكامه من الحزم، ومن الخارجين على الحاكم الشـــرعي لسبب أو آخر، خاصة وأن الخلافة العباسية حديثة العهد، وجاءت على أنقاض الخلافة الأموية، التي لا بد أن لها أنصاراً فقدوا بفقدها ميزات، أو أن هناك متطلعين للحكم، كما تطلعت الدولة العباسية، وكان هذا الخارج ممن أقلقها، وأقض مضجعها، فرأت في القضاء عليه كسباً كبيراً، وراحة بال، واطمئنانـــاً إلى إطفاء نار شــــره. ومع هذا، فإن في النفس متسعاً لسماع صوت العقل، المغلف بالعاطفة، فالمنصور أدرك أنه بهذا العفو سوف يرد بعضاً من الجميل لمن تفانى في ولائه، واســــتمات في كســـب منطقة كان بالإمكان أن تسبب له

صداعاً، أو ما هو أكثر من ذلك، والمنة على مرؤوسه سوف تعطيه سمعة مع بقية المرؤوسين الذين يقفون على أرض مماثلة.

والعفو عن هذا الخارج تضفي رونقاً على هذه الدولة الحديثة، وتطمئن الخائف، وتهدئ المرتجف، وتغسل قلب من بقلبه مرض، فهذا الرجل العاصي، بعد أن منّ عليه الخليفة المنصور، سوف يكون بوقاً يمدح الخليفة وعهده وسلالته، وسيكون من ورائه أهله، وقبيلته، ومن يلوذ به، ويعطف عليه. أما مكسب الخليفة من تقريب "معن بن زائدة" بالاستجابة لطلبه فكبير؛ لأن "معناً" عرف بكرمه، وحب الناس له، وليس له جزاء عند الناس إلا الدعاء، والفرحة أن يكرمه الخليفة.

يبقى أمر لا يزال لم يعطَ حقه في القصة، وهو الرجل الذي وراء ذلك كله، وهو الذي عرف الخارج، وأمسك به، وله على الدولة حق، لولائه لها، ولما وعدته به، وكان المتوقع أن يعطيه معن بن زائدة المبلغ، فيسكته، أو أن معناً يذكر الخليفة بحقه، فيعطيه ما عـــين لمن يدل على الخارج، أو يمسك به. ويبدو أن هذا لم يعنِ القاص؛ لأنه يخرج عن مجرى القصة قليلاً، وليس فيه ما يثير.

وقـــد تكون القصة بكاملهـــا صحيحة، وقد تكون مركبة كلها، اعتماداً على ما قد يظن أنه "لتلميـــع" صورة أبي جعفر المنصور، التي كانت موسومة بالقسوة، رغم ما يأتي من أخبار مضيئة عنه، تدل على حزم، وحســـن تصرف أمام ما يظهر أمامه مما يوجب الالتفات، وحسن المعالجة.

ومعروف عنه من بعض القصص والروايات أنه بخيل، وحريص على أمـــوال الدولة، ولا يعطي إلا القليل، وبعد القناعة بالاستحقاق، ويظن أن شــــدته وقسوته تحميه من عيوب البخل، وما قد يأتي من وراء ذلك من ثورات وفتن. وهذه القصة تؤكد أنه كان حليماً وكريماً أعطى خمسين ألفاً، وبسهولة أعطى خمسين ألفاً أخرى، بيسر، ودون تردد، ويطلب منه أن يعجلها، فيستجيب.

وعنـــد التفكـــير، ومحاولة الجمـــع بين هذه المتضاربات مـــن الصور أن المنصـــور عفا عن الرجل من أجل ســـابق خدمة معن، وقد يكون أعطاه المال، ولكن يشـــك في الزيادة، ويشك في التعجيـــل بالدفع؛ لأن معناً أعقل من أن يأتي على كل ما في إناء التسامح. [المختار من نوادر

الأخبار. ص: ٣١].

والقضاة علمــــاء، والعلماء أقرب الناس إلى معرفة الله وشرعه، وأولى الناس في الحرص على كســـب الأجر، والحظوة بالثـــواب، والإعداد للآخرة بما يكون مدّخراً جزلاً، فهم لا يكتفون باجتناب النواهي، وإطاعة الأوامر، وإنما يتقربون إلى الله بمـــا ينفع الناس، ويبعـــد عنهم ضائقات الزمن. والقضـــاة من بين العلماء عليهم واجب محتم، وعمل للناس لا بد من إعطاء الحكم فيه، وتحري العـــدل. ويمر بهم في عملهم ما يعد عبئاً ثقيلاً، فليس كل الناس يجلس أمام القاضي، وفي نيته المساعدة على إظهار الحقيقة، وتقرير الحق، وإنما المناكفة، والمغالطـــة، وحجب جوانب من الحقيقة، وإحلال ما هو مغاير لها محلها. ويسعى

بعض الخصوم إلى محاولة قلب الحق باطلاً والباطل حقّاً، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وما ساعفه ذكاؤه، وأوحى إليه به شيطانه. وفي مثل ذلك يجند القاضي جنود الحق من علم وذكاء وفطنة، ومخزون تجربة، واستعانة بمن يمكن أن يفيد من أصحاب المهن، والعارفين بالناس، والمدركين للأمور.

هذا جانب من الجوانب، وقد لا يكون أشدها، وقد يكون أشد منه محاولة القضاء بين اثنين ليسا متساويين في المجتمع، وهذا يقتضي القاضي أن يكون حازماً شجاعاً، مضحياً بأمور كثيرة، ومنها منصبه، وتركه يطلق نباح أعدائه، والشامتين فيه. ولكن من جعل الله أمامه هداه إلى التصرف الحسن، وحماه من سلطة المتسلط، وجناية

المتجني. وترخص عنده التضحية أمام أوامر الله ونواهيه، والحرص على العدل، وإحقاق الحق، وحماية الضعيف من القـــوي، والحرص كذلك على التصرف الذكي، واللباقة المحببة، أملاً في ألا يكون هناك اضطراب في هذا الجانب المضيء في حياة المجتمع. وقد لا يجد القاضي الأمر سهلاً مع من يرى نفســـه عالياً في مجتمعه، وعلوه هذا غير طبعي، وإنما كسبه من طريق قليل من الناس يختاره، وهؤلاء في الغالـــب يريدون أن يُميَّزوا في الجلوس، وفي التصرف معهم، والقاضي يرى أن هذه أول درجة في ســـلم عدم العدل، وفيه كســـر لنفس الضعيف، حتى لو جاء الحكم في صالحه؛ لأن في هـــذا إقراراً بالتفرقة بين الناس، في مجلس أبعـــد ما يكون فيه ذلك، ونظر الناس

إلى القاضـــي يرفعه عن أن يفكر في هذا، بَلْهَ أن يقره، ويأتيه.

وفي التراث قصص متعددة، تُري أن الحكام هم أبعد الناس عن إحراج القاضي، ومحاولة تمييز أنفسهم في مجلس القضاء، وإذا ما فكر أحدهم أن يُميِّز نفسه، قياساً على ما تبوأه من مكانة في المجتمع، ونُبِّـــه إلى الخلل في هذا، فإنه يتراجع، ويبارك ما اعتاد الناس عليه في أمر القضاء، وهو بهذا لا يعطـــي العدالة حقها فقط، وإنما يضرب مثلاً لبقية علية القوم في المجتمع، وهي ســـنّة له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، والقصة الآتيـــة تري كيف حمى القاضي حق آخرين أمام حاكم ظن أن له حقّاً، وهذا اجتهاد منه، ولكنه سرعان ما تراجع عنه، وامتدح القاضي على ما

أبداه مما هو أقرب إلى الحق وحماية حق ضعفاء، ليس القاضي بأحق من الحاكم في التماس جانب العدل لهم ولصالحهم، والقصة الآتية تبين ذلك:

"كان أبو خازم عبدالحميد بن عبدالعزيز السّكُوني قاضياً للمعتضد، مات في أيامه الضبعى، صاحب الطعام، وله أطفال، وعليه للمعتضد دين قَدره أربعة آلاف دينار. فقال المعتضد لعبيدالله ابن سليمان:

قل لعبدالحميد أن يدفع إلينا هذا المال من تركة الضبعي.

فذكر له ذلك، فقال أبو خازم:

إن المعتضد كأسوة الغرماء في تركة الضبعي.

فقال له عبيدالله: أتدري ما تقول؟

فقال أبو خازم، هو ما قلت لك.

وكان المعتضد يُلحّ على عبيدالله في اقتضاء المال، وعبيدالله يؤخر ما قاله أبو خازم، فلما ألحّ عليه أخبره بما قال أبو خازم. فأطرق المعتضد، ثم قال:

صدق عبدالحميد هو كما قال. نحن كسائر الغرماء وأسوهم". [تذكرة ابن حمدون: ٣/١٨٠].

هذا موقف حازم، وتصرف محمود، نبه به أبو خازم الخليفة المعتضد، فأضاء قنديل في ذهنه، فتجاوبت أصوات الإيمان في صدره، وساعده في كل ذلك حرصه على حفظ جوانب ملكه، وجوانب الملك تحفظ بالعدل. ولا يشك أحد في أن ثقة الخليفة المعتضد بالقاضي عبدالحميد قد قويت، وارتفع في نظره، وطمأنه إلى أن جانباً من

أهم جوانب الملك محفوظ بديدبان واعٍ، وحارس يقظ، ومسؤول أمين.

أبو خازم نسي منصبه، ولم يذكر إلا الأطفال وحقهم وحق الخليفة عليه في ألا يغشه، ولا ينافق له، فيقدمه على من سواه من أصحاب الحقوق، ونيته كانت رسوله إلى صدر الخليفة، مسحته بنور الهدى، وبَرد اليقين، فلم تأخذه العزة بالإثم، فيكابر، ويسل سيوف سلطته من تأنيب، أو عقاب، أو عزل، وإنما طأطأ رأساً نبيلاً شريفاً لأمر الله. وتواضعه هذا هو الذي يؤدي إلى الرفعة إلى السماكين، رحمهم الله جميعاً، وأحسن لهم في آخرهم.

والشجرة الطيبة عندما تُهزّ تؤتي ثمرها بجودة. وصادقوا الإيمان عندما تكون في يدهم السلطة،

ويختارون إعمالها في غـــير ما أوجب الله، ويأتي من يذكرهم بالله ذي السلطة الأعلى، يتذللون، ويطأطئون رؤوسهم لأمر الله تواضعاً، واعترافاً بخطئهم، وحق الله عليهم، ويفعلون ذلك بفخر واعتزاز، يُظهر ذلك ما يبدونه من الانصياع إلى ما ذكروا به، والقبول لمـــا نبهوا إليه، وحتى لا يشك في فعلهم من أنه ضعيف، يؤكدون قوته بما يظهرونه من كرم وجود على من كان ســـبباً في ثنيهم عن طريق الباطل إلى طريق الحق، وجادة الصواب.

بمجرد أن تُلمس شـــغاف قلب أحدهم تعبق رائحـــة كرم النفس، وأصالة المحتد، فيأتي منهم ما يدهـــش مما لم يكن متوقعاً؛ لأن من حولهم لا يعرفون مدى قوة النور المستكن في قلوبهم، ولا

يفتح لهم نافذة يرون منها إلا عند هذا الاختبار، الذي يُفلحون فيه فَلاحاً يكون مترع الإعجاب، ومركز الإكبار والإجلال. إنهم يرتفعون في عيون تابعيهم، ويكونون لهم مثالاً يحتذى، وسبباً لعدم إقدام التابعين لما يخالف عملهم، وهناك قصة فيها ذلك، وفيها نمط ما في القصة السابقة، حاكم يريد أن يحتاز ما يجد القاضي الشجاع الحازم العادل، أنه لا حق له فيه، وأنه يجب أن يقف بجانب ضعيف لم ينبت ريشه، ولا يزال دفؤه من زغبه، وحمايته بالله ثم بالصالح من خلقه، ممن وهبه البصيرة، وحسن التصرف، وعميق الرحمة، وحب العدل، وعشق الإنصاف، متناسياً المحاذير التي قد تأتي من الموقف الذي وقفه. ولكن إشعاع التقى ورجاء عون الله، جعل القاضي لا يفكر

في نفســـه، ولا في ســـلطة الحاكم، وإنما في قوة خالق الكون، الذي ائتمنه، وحِمْل الأمانة ثقيل، ولم يحملها القاضي حبّــاً في ثِقَلها، أو طمعاً في مَردُودها الدنيوي، وإنما طاعة لله في حمل فرض الكفاية هذا، وأملاً في الثواب، وطمعاً في الأجر، وتطلعاً إلى توفيق الله فيما يأتِي أو يدع:

"حدث أبو القاسم عبيدالله بن سليمان (وزير الخليفة العباسي المعتضد)، قال:

كنت أكتب لموسى بن بَغا، وكنا بالريّ، وكان قاضيهـــا إذ ذاك أحمد بن بديل الكوفي، فاحتاج موســـى أن يجمع ضيعة كانت هناك، كانت له فيها سهام، وأن يعمّرها، وكان فيها سهم ليتيم. فسرت إلى أحمد بن بديل، أو قال: استحضرت أحمـــد بن بديل، وخاطبته في أن يبيع علينا حصة

اليتيم، ويأخذ الثمن. فامتنع، وقال:

ما باليتيم حاجة للبيـــع، ولا آمن أن أبيع ما له، وهو مستغنٍ عنه، فيحدث على المال حادثة، فأكون قد ضيعته عليه.

فقلت: أنـــا أعطيك في ثمـــن حصته ضعف قيمتها.

فقال: ما هذا لي بعذر في البيع، والصورة في المال إذا كثر مثلها إذا قلّ.

فأدرته بكل لون وهو يمتنع، فاضجرني.

فقلت له: أيها القاضي، إلا تفعل، فإنه موسى ابن بغا!

فقال لي: أعزك الله، إنه الله تبارك وتعالى!

قال: فاستحييت من الله أن أعاوده بعد ذلك، وفارقته. ودخلت على موسى، فقال:

ما عملت في أمر الضيعة؟

فقصصت عليه الحديث. فلما سمع "إنه الله"، بكى، ومازال يكررها. ثم قال:

لا تعـــرض لهذه الضيعـــة، وانظر في أمر هذا الشيخ الصالح، فإن كانت له حاجة فاقضِها.

قال: فأحضرته، وقلت له:

إن الأمير قـــد أعفاك من أمر الضيعة، وذلك أنني شرحت له ما جرى بيننا، وهو يعرض عليك قضاء حوائجك.

قال: فدعا له، وقال:

هذا الفعل أحفظ لنعمته، ومالي حاجة إلا إدرار رزقي، فقد تأخر منذ شهور، وقد أضر بي.

فأطلقت له جاريه".

[نشوار المحاضرة: ٤/١١٠].

هذه القصـــة تبين جانباً مظلماً في إنســان، وجانباً منيراً في إنسان آخر. رجل يريد أن يزيد مال ســيده أضعافاً أضعافاً، ولا يكفيه ما في يد سيده من نعمة، بل يريد أن يضم إليها مال يتيم، ويركب رأســه في الحِجَاج واللجاج، ليصل إلى مراده، وهــذه ظلمة لا يتوقع في دُجنّة صاحبها أن يرى الحق، وهو لا يرى فيها وفي سوادها إلا ما تأتي عليه يده. وضع أمامه هدفاً، وأخذ، مثل حمار الطاحونة، يدور حوله. ســلاحه في كل ما يحاوله المال، ومضاعفته لمن يســاومه، ليصل إلى هدفــه، إلا أن القاضي، وهو الجانب المضيء في القصة، كان صخــرة صلبة من حجر الصوان، تكســرت على جوانبه جميــع كلمات الإغراء والتهديد، والتلويح بوجه الشــر القبيح، ومع

هذا ومع الأسلوب النابي، ثبت القاضي على رأيه، ولم تستفزه كلمة أبي القاسم التي ظاهرها حق وباطنها باطل، فهي في هذا المقال جاء بها تمهيداً لما هو أشد، وهو التذكير بسلطة ابن بغا، التي تتعدى سلطة الخليفة، وعندما قال هذا، وتجنب مخاطبة القاضي بأحب الأسماء إليه، وهو يا أبا فلان، أو عندما قال: "أيها القاضي" أتبعها بالدعاء، فقال: "هداك الله، أو وفقك الله: إني أخشى عليك من تكدير نفس ابن بغا، ومراعاته فيها خير للمسلمين"، كان رد القاضي الموفق ردّاً يليق برجل يملأ الإيمان والعلم صدره. لقد بدأ بالدعاء لأبي القاسم عبيدالله بن سليمان، فقال: "أعزك الله"، وهذه الكلمة الإسلامية الدافئة، فرشت البساط الأحمر لما أتى بعدها، فسار عليها

الأمر ســـيراً هادئاً، بَرَّد من غلواء أبي القاسم، وأجلسه جلسة محترمة، ولهذا لما ذكره بقوة الله التي لا تأتي قوة موســى بغا شيئاً بجانبها، صحا أبو القاسم من سباته، فاستحيا أن يرد، واستحيا مما ســبق منه، وأحسّ بالفارق العظيم بينه وبين القاضي: قبيله في هذا الموقف، وما جاء فيه من جدل، وانقلب معيناً لا عبئاً.

والإضاءة المشــعة المدهشة هي نية القاضي، وقد سبقت إلى قلب موسى بغا، فألانته، وجعلته مســتعداً أن يرى النور نوراً، والحق حقّاً، فلا يكتفــي بقبول ما جاء مــن القاضي من رفض لطلبه، بل حمد له ذلك، وأعلى قدره عنده، فلم يشر إليه في حديثه إلى أبي القاسم بالقاضي، وإنما قال "الشيخ"، علامة احترام، وحتى لا يخفى هذا

الاحترام أردفها بقوله: "الصالح".

حـــتى الآن والموقف قول وقول، وكان لا بد أن يُعضَّد بعمل، والعمل المؤكِّد للرضى بما صار هو أن موسى بغا أراد أن يتقرب إلى هذا الرجل الصالح بعمل يعود عليه بأجر، فقد أدرك أن عمل هذا القاضـــي كان في جنب الله، وأراد أن يناله من قربه منه ما يعطر أيامه، والله أكرم الأكرمين. لقد عرض عليه أن يقضي له ما قد يكون لديه من حاجة، ولكن هذا الصالح الفقيه لم تكن له حاجة لا حق له فيها، فرد المعروف بمعروف، وهو أن نبه أن موقف موســـى بغا موقف أحرى أن يُبقي عليه نعمة الله التي يتمتع بها الآن، ولم يطلب إلا ما يعتقد أنه يفيده، ويبعد الإثم عن الحاكم، وبين أنه متضرر من تأخير دفع راتبه الذي يســـتحقه

بعمله، وأن حاجته أن يُسرع بصرف مستحقاته. وقد سارع موسى بغا، أو وكيله، إلى الاستجابة للطلب.

إنها قصة توجب الوقفة والتأمل، وتكشـــف عما كان عليه ذلك المجتمع من ظلمة ومن نور، وتكشف عن مدى تأثير القاضي العادل الناصح على المجتمع الذي يعيش فيه.

مدخل للطعن

المسلم التّقي يبتعد عن الإسراف في الأكل لما ورد في ذلك من نهي في الكتاب والسنة، ولما تعارف عليه الناس من سواد صوّره الجشع في الطعام، ولهذا رسمت صور جميلة في التراث للذين يقتصدون في الأكل. واليوم يُدعى الناس إلى هذا من باب رعاية الصحة، والابتعاد عما يؤذي الجسد مما ثبت أنه من كثرة الأكل، ودسامته، وعدم توازن نوعه. وعلى هذا فذمّ البطنة محارب قديماً وحديثاً، رغم أن الناس واقعون في إغرائه ضحايا سهلة، نتيجة نقص الإرادة عند بعض الناس، والترف وزيادة الجهل عند آخرين.

والأقوال في وجوب عدم الإفراط في الأكل كثيرة مما جعل بعض المؤلفين أمثال ابن حمدون في تذكرته يفرد للأكل بجوانبه المختلفة باباً واسعاً، أحد جوانبه الحث على التقليل في الأكل، سواء كان ذلك في عدد وجبـــات الطعام اليومية، أو كثرة ما يقدم، أو تعدد ألوانه، والحرص على ما يفتح الشهية فيه، رائحةً ومنظراً وطعماً.

ومن أبرز الشواهد على فضيلة الاقتصاد في الأكل قول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾. (سورة الأعراف. الآية ٣١).

ومن أقوال الرسول ﷺ قوله:

"أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً: ضلالة الأهواء، واتّباع الشهوات في البطون والفروج، والغفلة

بعد المعرفة".

وقوله عليه الصلاة والسلام:

"ما ملأ آدمي وعاءً أنتن من البطن، بِحَسْب المرء من طُعمه ما أقام صلبه، أما إذا أَبَت، فثلث طعام، وثلث شراب، وثلث نفس".

وروي عنه ﷺ قوله:

"استعيذوا بالله من نفس لا تشبع".

وقال عليه السلام:

"ما زيّن الله رجلاً بزينة أفضل من عفاف بطنه".

وخيار رجال العرب المقدَّرين، البارزين في التاريخ، أثر عنهم أقوال تدل على فخرهم بالبعد عن كثرة الأكل، بل أحياناً النوم على الطوى مع وجود الأكل؛ لأن المروءة تقتضي هذا، وهو

فعل يجلب المدح، ولهذا أقدموا عليه، ليفخروا بما هو محط فخر في مجتمعهم.

ينسب إلى حاتم البيتان الآتيان، وهما ناطقان بما ذكرناه مما يمتدح، ويفاخر به.

أَبِيتُ خَمِيصَ البَطنِ مُضطَرِمَ الحَشَا
مِنَ الجُوعِ أَخشَى الذَّمَّ أَن أَتَضَلَّعَا
فَإِنّكَ إِنْ أَعطَيتَ بَطنَكَ سُؤلَهُ
وَفَرجَكَ، نَالاَ مُنتَهَى الذّمّ أَجمَعَا

فحاتم هنا ذو إرادة قوية في حكم نفسه، ولجمها عن أن تُعطى ما تشتهيه من البطنة، وإكثار الطعام إلى الحـــد الذي تضيق من كثرته الضلوع، وهو يفطم نفسه، ويسمح لنار الجوع أن تضطرم في معدته، وفي أحشائه؛ خوفاً من الذمّ.

ويقول أحد المرموقين من رجال العرب مثل

قول حاتم، مفاخراً بما يفعله من لجم شهيته للطعام، رغم توافر الطعام، وحضوره أمامه على مائدته، والقائل هو دريد بن الصمّة، وهو يؤبن أخاه:

تَرَاهُ خَمِيصَ البَطنِ وَالزَّادُ حَاضِرٌ
عَتِيدٌ، وَيَغدُو في القَمِيصِ المُقَدَّدِ

وصورة الفخر وعمقها تتبين من أن هذا الفخر يأتي في تأبين أخيه، فدريد يعدد المفاخر التي يحسن إظهارهـا في أخيه في هذا الموقف، الذي لا يقال فيه إلا ما يرفع الرأس، وتسير بذكره الركبان.

ومما يؤكد أن هـذا الإقلال في الأكل ما هو إلا تعفف عما يستهجنه هذا المجتمع، القصة التي تروى في تذكرة ابن حمدون عن ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة (في بعض المصادر هو الأحنف بن قيس):

"قال قتيبة بن مسلم:

أرسلني أبي إلى ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة، فقال: قل له:

قـــد كان في قومك دماء وجراح، وقد أحبوا أن تحضر المسجد.

فأتيته، فقال:

ياجارية، غَدّيني.

فجاءت بأرغفة خُشن، فَرَدَقُهُنَّ في مَريس، ثم بَرَقَتهنّ، فأكل، فجعل شـــأنه يصغر في عيني، ثم مسح يده، وقال:

الحمدلله، حِنطة الأهواز، وتمر الفرات، وزيت الشام.

ثم أخذ نعليــــه، وارتـــدى، فانطلق معي إلى المسجد. فصلى ركعتين، ثم احتبى. فما رأته حلقة

إلا تقوضت إليه، فاجتمع الطالبون والمطلوبون، فأكثروا الكلام، فقال:

إلامَ صار أمرهم؟

قالوا: إلى كذا وكذا من الإبل.

قال: هي عليّ. ثم قام". [التذكرة: ٩١/٩].

رجل أصيل، لم تغره أمواله وكثرتها بترك ما تعود عليه مما هو محط الفخر والاعتزاز في مجتمعه. إنه يعتقد أنه حاز المجد بأكمله، إذ اجتمعت له على مائدته ثلاثة عناصر من عناصر التغذية: البر والتمر والزيت، وبالذات من البلدان التي اشتهرت بطيب العنصر، وزكائه.

وصفوان بن محرز يُروى عنه قول يسير على هذا النهج في عدم الإسراف في الأكل، وعلى

حمد الله على ما يأتي معه الكفاف، وقناعة النفس، يقول في المرجع نفسه (٩/٩٣):

"إذا أتيــــت أهلي، فقرّبوا إليّ رغيفاً، فأكلته، وشربت عليه من الماء، فعلى الدنيا العفاء".

ولنســــتمع إلى تعبير أعــــرابي مبتدع في هذا المقام:

"قيل لأعرابي: ما طعامك؟

قال: الخلّ والزيت.

فقيل له: أتصبر عليهما؟

قال: ليتهما يصبران علي".

وكانوا ينتقــــدون ما يخــــرج في الأكل عما اعتادوا عليه، ويرون في هذا ما يوجب الالتفات، ويستدعي التساؤل، قيل إن:

"عمر بــــن الخطاب رضي الله عنه دخل على عاصم بن

عمر، وهو يأكل لحماً، فقال:

ما هذا؟

قال: قَرِمنا إليه.

قال: ويحك، قَرِمتَ إلى شــــيء فأكلته! كفى بالمرء شرهاً أن يأكل كل ما يشتهي".

إن عمر لم ينطق ولكن مجتمعه نطق بما قال، إن اشتهاء المرء شيئاً لا يبرر إيجاده، فلابد من رسن يخزم ناقة الشهية، ولِجام يوقف اندفاع حصان اللذة.

هذه صور مما كان المجتمع يفضله لأفراده، وما يختاره لصالحيه، ومخالفة ذلك ذم، ومسقط انتقاد، ومجال طعن، ومادة هجاء ولمز. لهذا اســــتفادوا من مخالفة فضيلة التقشــــف في الأكل، فهاجموا أعداءهم، خاصة السياسيين، بأن ركبوا عليهم

أخباراً عن إســـرافهم في الأكل، وغالوا في هذا، وصوروا صوراً لا يقرها الواقع، ولا يقبلها العقل، وظنوا أنهم بهذا ينالون منهم، وأنهم كلما زادوا في وصفهم بالجشع، وتركيب القصص المفرطة في الخيال، زاد بهذا تشـــويه صورهم، وتبغيض الناس لهم. وهم في الحقيقة بهذا يخسرون خسارة كبرى؛ لأنهم استهانوا بعقول السامعين لما قالوا، أو القارئين لما كتبوا، فالمفكـــر فيما أمامه، وما يعرفه عن هؤلاء من استقامة، ومن استحقاقهم لحكم الناس، وإدارة شؤونهم، ورعاية أمورهم، يدركون ويكتشـــفون بسهولة أن هذه القصص موضوعة، وما غالوا فيه عند التدبر يبطل، ويبطل معـــه ما قد يكون عادة مقبولاً، فينهدم بهذا كل ما بنوا. ومن هذه القصص التي كانت تروى عن

معاوية، أو الأقوال التي كانت تنقل عنه ما يأتي، يقولون مثلاً:

"روي أن معاويـــة بن أبي ســفيان كان نهماً جشعاً، بخيلاً على الطعام".

وروي أنه قال لأعرابي يؤاكله:

"ارفع الشعرة من لقمتك.

فقال: وإنك لتلحظ الشعرة في لقمتي! والله لا أكلت معك طعاماً".

والطامة الكبرى تـــأتي في رواية ما لا يصدقه العقل مما ركب تركيباً سمجـــاً، لا يقره منطق، ولا يقبله ذوق، ولا يقدم على نحله إلا مستهتر بعقول من أمامه.

"روي أنه أصلح له عجل مشوي، فأكل معه دســـتاً من الخبز السميد، وأربع فراني (الفرنية:

خبزة تشوى، ثم تروّى سمناً ولبناً وسكراً)، وجدياً حارّاً، وجدياً بارداً، سوى الألوان، ووضع بين يديه مئة رطل من الباقلاء الرطب. فأتى عليه".

إن الفيل لا يستطيع أن يجد مكاناً في بطنه لكل هذا، ولكن الله أراد أن يبرئ معاوية مما يقال عنه، فأطال للكاتب أو القائل الحبل ليخنق فكره قبل أن يخنق سُمعة معاوية.

"وقيل: إنه كان يأكل كل يوم أربع أكلات، آخرهن أشدهن، وأفضلهن، ثم يقول:

يا غلام، ارفع، فوالله ما شبعت، ولكن مَلَلت".

لماذا يقول هذا للغلام، ليس هو في حاجة أن يكشف للغلام الأسباب الخفية لإنهائه طعامه، ولو قاله لصديق مشارك لكان هذا أقرب للقبول،

ولكن الله أعمى بصيرة الناحل عن أن يأتي بما هو أكثـــر إتقاناً. ومن مجانبة الإتقان كذلك أنه يأمر برفع الطعـــام، والأولى أن يقوم هو عن الطعام، إلا إذا كان من الترف، بحيث يؤتى له بطعامه في مجلسه.

ولم يصـــبر ابن حمدون، وقد نقل هذه الأخبار من مصـــادر، أن يبدي نقده لكل هذه الأقوال، فيقول بعد ذكره لها:

"وقد ذُكرت عنه في ذلك أخبار مســـتهجنة، ألفيتُهـــا يخالفها المأثور من حلمـــه، وهمته. وإن امرءاً سمت همته إلى مناوأة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومغالبته على الخلافة مع تباعد اســـتحقاقه منها، لبعيد أن يبخل علـــى طعام، ويحامي دون أكله، ويبذل البذول لرفـــع الأيدى عنه كما رووا أنه

كان يفعل [٩/٩٧].

إذاً كان هذا النحل سلاحاً سياسيّاً وُجِّه إلى حكام ذي قوة، أبعدوا أعداءهم، أو منافسيهم من الميـــدان، فلجأ أضدادهم إلى الحرب الخفية: الإشاعة والنيل من السمعة، بأسلحة مختلفة، تبين أن من أقواها رميهم بالشره في الأكل والنساء. هذا الســـلاح الخفي نشر وأشيع في المجتمعات بحذر أيام حكمهم، ثم بدون حذر بعد أن ماتوا، وإذا كان يلفـــق في أول الأمر مثل هذا انتقاماً وتشفياً، فقد صار عند المتأخرين يؤخذ لهذا السبب عند بعض الناس، وطرافة وتفكهاً وسخرية عند آخرين من المتأخرين، وطرافته، وغرابته، وبعده عن الواقع، يعطيه جاذبية تبقيه حيّاً.

ومن أبرز من كان لهم منافسون معاوية وزياد

وأبناؤه والحجاج وسليمان بن عبدالملك بن مروان، وامتلأت الكتب بما كان يروى عنهم من أخبار تخص الأكل، والنهم فيه، والجشع الواضح، فمثلاً يقال عن عبيدالله بن زياد:

"كان عبيدالله بن زياد من الأكلة. كان يأكل في اليوم خمسَ أكلات، آخرها جبنة بعسل، ويوضع بين يديه بعدما يفرغ من الطعام عناق، أو جدي، فيأتي عليه وحده. [٩٨/٩].

وهكذا سلم زياد؛ لأن النحلة كانوا في شغل بمعاوية، والتفتوا إلى عبيدالله، وفيه رائحة زياد.

أما الحجاج فقال عنه سلم بن قتيبة:

"كنت في دار الحجاج مع ولده، وأنا غلام، فقالوا: قد جاء الأمير.

فدخل الحجاج، فأمر بتنّور، فنُصب، وقعد في

الدار، وأمر رجلاً يخبز خبز الماء، ودعا بسمك، فجعلوا يأتونه بالسمك، فيأكله، حتى أكل ثمانين جاماً من سمك، بثمانين رغيفاً من خبز الماء".

ترى كيف يستطيع بطن الحجاج أن يتحمل هذا وأكتافه تأبى أن تحمل بعض هذا، ولكنه الخيال يغذيه الحنق، والرغبة في تشويه السمعة، مع أنهم لو اكتفوا بعيوب أعدائهم الحقيقة لكفتهم مؤونة بغض الناس لهم، فعدم عصمة الناس من الخطأ، تجعل ما يرتكبونه عمــداً وصغيراً مجالَ حديث الناس، والتعليق عليه.

ويصغر ما قيل عن الحجاج هجواً وذمّاً في هذا المقام عما قيل عن سليمان بن عبدالملك، ويروي عنه صاحب التذكرة، أنه من الذين اهموا باتباع الشهوات التي قد استولت على عقولهم، فيقول

عن ذلك:

"ومنهم سليمان بن عبدالملك، وهو أشهرهم بالجشع. روي أنه شُوي له أربعة وثمانون خروفاً، فمد يده إلى كل واحد منها، فأخذ شحم كليته (وروي إليته)، وأخذ معه نصف بطنه، مع أربعة وثمانين رغيفاً، ثم أذن للناس، وقدم الطعام، وأكل أكل من لم يذق شيئاً".

ويبدو أن وصم سليمان بهذه الرذيلة مغرٍ، لا لأنها تخص سليمان وحده، وإنما لأنها تلحق بني أمية أجمعين. وهذا قد يوحي بأن تأليف هذه القصص اكتمل في زمن العباسيين.

ويستمرئ الناحلون الوضع على سليمان ومخزن بطنه، فيستمرون في رسم الصور غير المعقولة، والبعيدة عن المنطق والواقع، فيروون

عن بعض الناس قولهم عنه:

"قال بعضهم: دخلت مطبخ سليمان، فوجدت فيه اثنتين وثمانين فخّارة، فيها نواهض[1].

قالوا: فأكلها أمير المؤمنين كلها" [٩/٩٨].

"وروي أنه أكل عند يزيد بن المهلب أربعين دجاجة كردناك، سوى ما أكل من الطعام".

يقولون هذا القول دون أن يتذكروا أن من يسمعه أو يقرؤه إنسان يأكل الطعام، ويعرف سعة البطن، وعزوف النفس عن كثرة الطعام الواحد، خاصة إذا كان دسماً، وأن دجاجة واحدة تكفي لقمع الشهية، وملء البطن، ومهما كان الآكل نهماً، وعنده القدرة على حشو بطنه، فإنه لا يمكن أن يزيد عن خمس

(١) الناهض من الطير الفرخ الذي قارب بدء الطيران.

دجاجات صغار.

ويبدو أن أخبار السمر تقتضي مثل هذه المغالاة، وضحاياها من سبق أن أعلن عن جشعه في الأكل، فيسرع الناحلون على اتخاذه مشجباً يعلقون عليه ما تجود به أذهانهم من خيال جامح، تمريراً للوقت، وتسلية للحضور، ونيلاً ممن يحلو النيل منه. والقصة الآتية عن سليمان أيضاً، والموقف فيها يسمح بإطالتها، والتوسع فيها ما بقي في الليل وقت، وما بقي من السمار من أحد، والقاص أخذ يضيف من أصناف الطعام ما يحلو له، وما هو من وحي الساعة، واقتضاء الوقت:

"قال الشمردل، وكيل آل عمرو بن العاص:

قدم سليمان بن عبدالملك الطائف، فدخل هو وعمر بن عبدالعزيز إليّ، فجاء حتى ألقى صدره على غصن، ثم قال:

ياشمردل، أما عندك شيء تطعمني؟

قلت: عندي جدي كانت تغدو عليه حافل، وتروح أخرى.

قال: عجّل به.

فأتيته به، كأنه عُكَّةُ سمن، فجعل يأكل وهو لا يدعو عمر، حتى إذا أبقى منه فَخِذاً قال:

يا أبا حفص، هلمَّ.

قال: إني صائم.

فأتى عليه، ثم قال:

يا شمردل، ويلك، أما عندك شيء؟

قلت: دجاجات ســـت، كأهن رئلان النعام،

فأتيته بهن، فأتى عليهن، ثم قال:

ويلك يا شمردل، أما عندك شيء؟

قلت: سويق كأنه قراضة الذهب، فأتيته بعُسٍّ يغيب فيه الرأس، فجعل يشربه، فلما فرغ تجشأ، كأنه صارخ في جب. ثم قال:

يا غلام، أفرغت من غدائنا؟

قال: نعم.

قال: ما هو؟

قال: نيف وثمانون قدراً.

قال: فائتني بقِدرٍ قِدر، وبقناع عليه رُقاق، فأكل من كل قَدرٍ ثلاث لقم، ثم مسح يده، واستلقى على فراشه، وأذن للناس، فوُضِعت الخُون، وقعد يأكل مع الناس.

ثم يريد الله أن يبين لنا صحة حدسنا في أن

هذه القصص وضعت لتسرّ بني العباس، أعداء الأمويين، وكانوا قد قضوا على آخر خليفة من الأمويين، وورثوا ملكهم، وصار سلاح المتقرب من العباســـيين نقد الأمويين بما فيهم، وما ليس فيهم، وتشويه سمعتهم، حتى تصفو وتلمع صورة خلفاء بني العبـــاس، وأن هذه القصص وضعت تقرباً ونفاقاً، فتأتي قصة تدل بلفظها على هذا، قصة صريحة، وقد آتـــت أكلها، ونالت رضى من قيلت أمامه، ومدحاً لدولته، وقبلها، وأثاب عليها:

"قال الأصمعي: حدثت الرشـــيد أن سليمان ابن عبدالملك كان يؤتَى بالسّـــفّود، عليه دجاج سمين مشوي، فلا ينتظر أن يُترع من السّفّود، ولا يلتمـــس منديلاً، يُؤتَى به، فيأخذه بكمه، فيأكل

واحدةً واحدة، حتى يأتي عليه.

فقال الرشـــيد: ويحك يا أصمعي، ما أعلمك بأخبار الناس! فإني اعترضتُ جِباب سـليمان، فوجـدت فيها آثار الدهـن، فظننته طيباً حتى حدثتني. وأمر لي بجبة منها" [٩/٩٩].

وسلاح الذم بالطعام لم يكن جديداً على هذه المجتمعات، وكانت تثيره المنافسـة بين قبيلين، أو بين فئتـين، وكان لهذا وقع كبير، ومثل هذه التهم والأقوال تسـير بها الركبان، ويقبل منها ما لم يصح، فمثلاً كانت تميم تُعيَّر بالجشع، وقد أورد صاحب التذكرة قصة الحجاج مع جلسائه حين سألهم عن أي صوت سمعه أحدهم أحسن؟ فأجابوا إجابات جادة وسـديدة، إلا شعبة بن علقمة التميمي، فقد قال:

"لا والله مـــا سمعت قط أعجـــب إليّ من أن أكون جائعاً مع قوم جياع، فأسمع قعقعة الخِوان خلف ظهري. فضحك الحجاج، وقال:

أبيتم يا بني تميم، إلا حبّ الزاد".

ولعل هذه مخترعة من أساسها من أجل ذم بني تميم، ووصمهم بهذا الخلق، الذي سوف يستفيد منه عــدوّ ثانٍ لهم وثالث، حــتى يصبح وكأن الجشــع صفةً لازمة لهم. وقصة: الشقي راكب البراجمة معروفة، ويقال: إنها الســبب في إلصاق تهمة الجشع بهم [١٠٦/٩].

هذه صور حملها التراث مسجلة ترسم صورة المجتمــع وفكره، وما يدور فيه، وما يشــغل أهله، وما يكيّف حياتهم، وتصرفهم. وجانب الاقتصاد في الأكل والمدح عليه، والتفاخر به،

أو الإسراف فيه، والذم عليه، واتخاذه سلاحاً نافذاً للطعن على من أريد تشويه سمعته، وتلطيخ صورته.

من قصص الباطل[1]

إذا نظرنا في القصص المدونة في كتب التراث نجد أنها تستحق وقفة تفكير، وعمق تدبر، ودقة تبصر، ونتيجة هذا قد تكشف أن هذه القصص مؤلفة، ولم تحدث على أرض الواقع، وأنها أنواع متعددة، وأقسام مختلفة، يحكمها الهدف من وضعها، والغرض من تأليفها، وأن بعضها أُتي به للموعظة، وترقيق القلوب، ويركز المؤلف فيها على الهدف المقصود، وتبقى عينه عليه، ويرخص من أجله كل شيء بما في ذلك الحقيقة ومظاهر

---

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد ٣٦٧ شعبان ١٤٢٨هـ/سبتمبر ٢٠٠٧م.

وجودها، وما فيها من قوة، ويتجاهل أحياناً الواقع، وما يقتضيه، والعرف وما يستوجبه، والعادات وما تطلبه، ولا يصبح أمام عينه وفكره إلا ما هو بسبيل خدمته، وإخراجه بالصورة التي اختارها. ومن هذا التركيز وتجاهل الحقائق والواقع والعادة يُدخل على المؤلف ويُعرف أنه واضع لا راوٍ، ومزور لا أصيلاً، وأن ما ذكر أنه وقع لم يقع، وما روى أنه حصل لم يحصل.

حينئذ يتبين هدفه، والقصد مما ألف، ولا ينفعه ما بذل من جهد لتغطية حقيقة تزويره، وحالات الوضع هذه يتفاوت الأمر فيها، فبعضها هو تأليف كامل للقصة، أو سطو على قصة مأثورة أدخل عليها محو وتغيير، وأخذت من بيئتها ووضع لها بيئة أخرى، وبُني لها محيط مختلف عن محيطها

الأصل، وظن المزور أنه طمر بهذا معالم التزوير.

وقد يكون التزوير في إنقاص بعض الجوانب، والزيادة في جوانب أخرى، أو نزع اسم وتثبيت آخر محله، والأهداف في كل هذا مختلفة، فبعضها جاء للمدح، وبعضها للذم، وخلف هذا عداء أو محبة، أو منافسة أو مفاخرة.

وسنسوق هنا قصة موضوعة أوحت بها قصص أخرى لعل أقدمها قصة حدثت مع كسـرى، والأخرى مع الحجاج، وحدثت لآخرين كذلك، وسنرى مواقع الاهتزاز في هذه القصة، ومكامن الاضطراب.

خرج المهدي يتصيد، فغار به فرسه حتى وقع في خباء أعرابي، فقال:

يا أعرابي، هل من قرى؟

فأخرج له قرص شعير، فأكله، ثم أخرج له فضلة من لبن، ثم أتاه بنبيذ في ركوة، فسقاه، فلما شرب المهدي قال:

يا أعرابي، أتدري من أنا؟

فقال الأعرابي:

لا.

قال: أنا من خدم أمير المؤمنين.

قال:

بارك الله في موضعك.

ثم سقاه مرة أخرى، فشرب، فقال:

يا أعرابي، أتدري من أنا؟

فقال:

زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين.

قال:

لا، أنا من قواد أمير المؤمنين.

قال:

رحبت بلادك، وطال مرادك.

ثم سقاه الثالثة، فلما فرغ قال:

يا أعرابي، أتدري من أنا؟

قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين.

قال:

لا، ولكنني أمير المؤمنين.

فأخذ الأعرابي الركوة، وقال:

إليك عني، فوالله لو شربت الرابعة لادعيت أنك رسول الله.

فضحك المهدي حتى غشي عليه.

ثم أحاطت به الخيل، ونزل إليه الأشــراف، فطار قلب الأعرابي، فقال المهدي للأعرابي:

لا بأس عليك ولا خوف.

ثم أمر له بكسوة ومال جزيل.

"أخبار وطرائف عن الملوك والخلفاء والمغنين والشعراء والعشاق لفخر الدين فخر الدين".

هذه هي القصة أبدل القاص كسرى والحجاج بالمهدي، والمرأة وبقرتها في قصة كسرى، والحجاج والغلام بالأعرابي، وكلهم كانوا في الصحراء، وكل من كسرى والحجاج والمهدي، فصله فرسه عن مجموعته، وكلهم جاءت مقابلتهم لأبطال قصتهم مصادفة، وقصة المهدي مثل قصة الحجاج بعد أن وصل إلى هدفه توافدت عليه حاشيته، مع دهشة الصبي في قصة الحجاج ودهشة الأعرابي في قصة المهدي.

هذا موضع من مواضع الاهتزاز التي دلت على

أن القصة موضوعة، والاهتزاز الآخر أن البدوي فقير مدقع، عماده في طعامه خبز الشعير واللبن، ولا يتصـــور أنه في صحرائـــه يصنع النبيذ، ولا بضعف مقدرته المالية يستطيع أن يشتريه، واللبن والخمر عادة لا يجتمعان على مائدة واحدة.

هناك أيضاً سرعة عمل النبيذ، والنبيذ ليس قوياً إلى هذا الحـــد، ولضعف تأثيره حلله بعض علماء العراق، أما قوة ما شرب فهي فوق التصور، كذلك المضيف عادة يمسك وعاء الشراب، ويصب لضيفه، ولكن القاص نسي، وصرح خلافاً لما دلل عرضاً في أول الأمر أنه يصب لضيفه ويسقيه، فقال: إنه أخذ منه الركوة، والركـــوة صغيرة كذلك، ولا تتحمل ثلاثة كؤوس، وفيها بقية!

أليس من حقنا أن نصف هذه القصة بأنها باطلة؟

البر المتبادل بين ابنة وولي أمرها[1]

عن قليل سـوف أقدم لكم نفسـي، أما عن ماضي حياتي فقد ولدت منذ اثنين وثلاثين عاماً لأسرة كريمة، هيأت لي من أول يوم ولدت فيه أسـباب الازدهار، اختـارت لي الغذاء النافع، والمسكن اللائق، واللباس الجميل، وكستني بأردية فضفاضة ألوانها جميلة، ونسجها متقن، وحَرِصَتْ أن تكون هذه الأكسية مناسبة لقوامي منوعة في مظهري بما يجعلني هيّة في العيون، حريصة على أن يكون مخبري مفخرة من المفاخر.

(١) كتبت بمناسبة تقاعد الأستاذ الأخ حمد العبدالله القاضي رئيس تحرير المجلة العربية، ونشرت في صحيفة الجزيرة بالعدد (١٢٧٧٤) في ١٤٢٨/٧/١٧هـ الموافق: ٢٠٠٧/٧/٣١م.

فلما دَخَلْتُ مرحلة جديدة من عمري سلمني من رعاني إلى من كان مثله في الحنو عليّ، فأخذ هذا في تربيتي التربية الحســـنة، فلم أشـــعر بهذا الانتقال المريح، ولمست الحنان من هذه اليد الشابة القوية، الرقيقة، وفي سني هذه، وقد عرفني الناس وأحبوني، فأخذت أنا وسيدي الجديد نرشف معاً كؤوس التجارب العذبة، ونشع نوراً نحرص معاً أن يكـــون فيه ما يهدي النـــاس إلى ما ينفعهم، وينمي قوى الخير في أفكارهم، ويهديهم إبداعاً جديداً لا يبغون عليه غيره.

وأصبح لي مظهر متجدد أتقمصه كلما رأيت أن مجتمعي يريدني أن أظهر به، وكنت أنا وولي أمري نحرص على هذا، ونتلمس من جمهورنا ما يودنا أن نكون عليه، فنسرع إلى ذلك، وأصبح

هذا سـهلاً علينا مع وسـائل التقنية الحديثة، والوجد المالي الذي ننعم به.

في مرحلة مبكـرة من عمل ولي أمري الجديد انتقلنا إلى منزل جديد، أضفى على حياتنا سروراً وفرحاً، إذ صار بإمكاننا أن نتوسـع في عملنا، وأن نشعر بالاستقرار الذي أراحنا من التنقل بين المساكن، وهو شعور مَن امتلك بيتاً بعد عناء في البحث، وكثرة في المعروض، وحيرة في الاختيار.

كل هذا وأهلنا لا يعلمون بذلك، ولكنهم يشعرون بأن إنتاجنا قد تغير إلى الأحسن من جميع النواحي، داخلاً وخارجاً، مخبراً ومظهراً، ولا نزال نمرح في رياض ازدهارنا الذي يحيط بنا من جميع النواحي، وتغبطنا عليه مثيلاتنا ممن يسرن على الخط الذي نسير عليه، وقد حمدناه، وحُمِد منا.

ولي أمري هذا رجل شهم نبيل لا تهمه راحته عند راحتي وعند رضى جمهورنا الذي وقفنا حياتنا لخدمته لما رأيناه منه من تقدير لعملنا، لم نجد جزاءً له إلا مضاعفة الجهد، والسير إلى الأمام قدماً، للوصول إلى الأهداف النبيلة المرسومة لنا منذ الأساس، وما أدخلناه عليها فيما بعد، عندما وجدنا أن التطور في جوانب الحياة المختلفة يتطلبه.

قلت: إن ولي أمري يسعى إلى صالحي ما وسعه الجهد مستميتاً في هذا، ناسياً أحياناً بيته وأهله وأولاده وأصدقاءه، مع ما عرف عنه اجتماعاً برِّه بهؤلاء، وحرصه على التواصل معهم، ولكني أبقى دائماً عنده في المقدمة، والأولى بالرعاية والنفع.

أُزَفُّ عند نهاية كل شهر إلى جمهورنا الحبيب بثوب جديد قشـــيب، نؤمل أن يعجبهم، وأن يجدوا فيه بغيتهم، وحينئذ يبتسم ثغر ولي أمري، وينير وجهه، إذ يراني قد وصلت إلى بر السلام بعد رحلة شـــهر كاملة، أمر على رياض منيرة أقطف لجمهورنا مـــن هذه الروضة زهرة، ومن تلك الشجرة وردة، وتأتينا من الفواكه اللذيذة من بعض من يرفدنا في حياتنا غذاء للعقول نقدمه على طبق في بلور ما استطعنا.

أجل، إن ما نقدمه عـــرض نضع أيدينا على قلوبنا ونحن نضع مجموعة على المسرح، فإذا ما صفق الجمهور تنفســـنا الصعداء، فرحين بثمرة جهد سابق، لا تكاد تغيب شمسه حتى تطلع شمس شهر جديد، نبدأ فيه معاً الكفاح، وبذل الجهد،

والتقصي والتحـــري، وتلمُّس النافع، واقتناص السانح، وصيد الجديد.

هو بَـــرٌّ بي، وأنا برَّةٌ به، وكلانا بَرٌّ بجمهورنا، وجمهورنا بَرٌّ بنا، يقبل منا، ويشجعنا، ويوافينا بما يعتقد أن فيه ما يبقي شـــبابنا علينا، ويضمن لنا القبول ممن وقفنا حياتنا من أجله.

ومثلما تسلّم ولي أمري الحالي صولجان رعايتي، والعناية بي من سابقه، وقام به خير قيام – جزاه الله خيراً، ووفقه أينما اتجه – يسلم هو اليوم هذا الصولجـــان المضيء إلى خلف لو لم يكن كفيّاً لما ائتمن على حياتي التي تُعِب على تنشئتها تنشئة حسنة.

ومـــا أمامنا إلا أن ندعو لـــولي الأمر الجديد بالتوفيـــق وأن يأخذ بيدنـــا إلى الأمام في طريق

السعادة والإسعاد، إنه جواد كريم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه وسلم.

المجلة العربية
رواية عبدالعزيز الخويطر

ما وراء الكتابة[1]

يحرص الكتاب في عصـــور النهضة الفكرية والأدبية في العصر العباسي وما بعده على الإحاطة بجوانب ما يكتبون عنه، وعلى وضع خطة تجعل القارئ يشترك معهم في الصورة التي في ذهنهم، والتي دعتهم إلى الإقدام على الكتابة عن الموضع الذي اختاروه، ومـــا دعاهم إلى ذلك، وكيف تبلور في ذهنهم، وكيف يريدون طرحه.

هذه خطوة تدل على عدة معانٍ، أولها اهتمامهم بالقارئ، ولعله الهدف الرئيس لكتابة ما يكتب،

---

(١) نشـــرت في المجلة العربية، في العدد ٣٦٦ في رجب ١٤٢٨هـــ الموافق يوليه ٢٠٠٧م.

وليس ما يكتب "الفن للفن"، والثاني شعورهم بأهمية ما يكتبون عنه ما اختاروه مادة للانقطاع له، والعناية به، والثالث أنهم لم يقدموا عليه إلا بعد أن تبلور الموضوع في أذهانهم، ووجدوا أنه يستحق أن يفرد له كتاب، أو باب أو فصل من الفصول، والرابع أنه أمر يهم المجتمع، ولا بد أنه صار فيه في هذا المجتمع أخذ ورد مما استوجب أن تبين عنه الصورة الكاملة لسلبه وإيجابه، وتقال كلمة الفصل في ضوء المعلومات المطروحة، والإتيان بالآراء على اختلافها.

أمامي الآن كتاب "التذكرة الحمدونية"، تصنيف محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، الذي عاش إلى بدء القرن الرابع الهجري، والكتاب في عشرة أجزاء آخرها مجلد الفهارس،

وهو من تحقيق الأستاذين: إحسان عباس وبكر عباس، ومن إصدار دار صادر في بيروت عندما فتحت المجلد الخامس، على الصفحة (٨) وجدت الباب الثاني والعشرين "باب الهدايا"، وقدمه المؤلف بمقدمة أشركت القارئ بحق مع المؤلف في الداعي للكتابة في هذا الباب، وجعلته في الصورة قبل أن يدخل المؤلف في التفاصيل، مبتدئاً بما جاء في القرآن الكريم عن الهدية، وما جاء في السنة النبوية، ثم سار يطبق الخطة التي وضعها في ذهنه خطوة خطوة حتى استوعب جميع ما كان جاء في الهدية سلباً أو إيجاباً، مُبَهّراً كل هذا بما قد يكون هناك من قصص: طريفة أو غير طريفة.

والذي يهمني عرضه هنا هو مدخله للقول عن

طريق شرح النهج الذي سوف ينهجه. وهذا ما قاله:

"هـــذا باب نذكر فيه ما جاء في اســــتحباب الهدية، والندب إليها، وموضع كراهيتها، والمنع من قبولها، وما يحسن إهداؤه منها، ويجمل موقعه، وما يوجب الـــذم، ويجتلبه، وأوصاف المتهادى منها، وملحاً من نوادرها، لتكمل المعاني لطالبها، وتجـــري على مقاصـــد المتمثل بهـــا" [التذكرة الحمدونية (ج٥ ص ٨)].

أوصاف ناقة[1]

تغص كتب الأدب ببعض الحكايات التي يحتار أمامها القارئ أهي حقيقة أم مؤلفة، ولم تحدث، ولكنها فكرة عبرت في ذهن كاتب، فاستحسنها، ورتبها، ومحا فيها وأثبت، وزاد وأسقط، حتى اكتملت طرافتها، واختفى الافتعال فيها، وجاءت عروساً مجلوة بثوب زفاف بهيج، حتى إن القارئ من جمالها يغمض عينيه عن ظلال الشك التي مرت بسماء فكره، ويزيحها بأعذار مختلفة. وهذه القصة ينطبق عليها هذا:

---

(١) المجلة العربية: العدد ٣٦٥ السنة ٣٢ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ الموافق يوليه ٢٠٠٧م.

قال ابن حمدون في تذكرته:

"أهـــدى الرعيل بن الكلب ناقة لهشـــام بن عبدالملك، فلم يقبلها، فقال:

يا أمـــير المؤمنين، أرددت ناقتي وهي هلواع، مرياع، مرباع، مقراع، مسياع، مسناع، حلبانة، ركبانة.

فضحك، وقبلها، وأمر له بألف درهم".

"الهلواع: الخفيفة، والمرباع: التي تقدم الإبل وتعود، والمرياع: التي تعجل اللقاح، والمقراع: الـــتي تلقح أول ما يقرعها الفحل، والمســـياع: السمينة، والمسناع: الواسعة الخطو".

هل يعرف الرعيل هذه الأوصاف قبل أن يأتي، وهل هي معروفة لغـــيره، وهل كان يقولها قبل ذلك لغير عبدالملك، واستعادها هنا إنقاذاً لموقفه،

أو أنه فكر فيها أول مرة، وفكر أن طرافتها قد تفتـــح الباب الذي أغلق. المهم أنه إذا صح هذا الموقف فقد فتحت هذه الأوصاف الباب المغلق، ودخلت التاريخ عـــن طريق ابن حمدون، الذي أوصلها إلينا، والله وحده الذي يعلم من ســـيأتي من الأجيال فيعرف عنها.

والأقوال المفاجئة، والردود الطريفة كثيراً ما غـــيرت المواقف، فأضحكت غضبانَ، وأفرحت حزيناً، وأزالت بأساً، وفرجت ضيقاً، وأعطت بعـــد منع، وأبرأت بعد جرح، وأســـعدت بعد حزن، وأكدت بعد شـــك، ورفعت بعد وضع، وأزالت بعد ثبات، وأثبتت بعد تضعضع، وكل هذا بإذن الواحد الأحد.

[التذكرة الحمدونية (ج٥ ص ٢٠)].

رياضة الصيد(١)

رياضة الصيد عرفت من أوائل القرون، ولعلها نشأت مع الإنسان وهو يطرد الصيد لقُوتِه وقُوْتِ عياله، حتى جمع من التجارب ما أصبح القيام به فنّاً متقناً، يخضع لقواعد متقنة، وأصول متعارف عليهـــا، يتفرع منها ما يتصــــل بطبيعة الأرض، والحيوان المعد للصيد، ونوع الصيد، وحِيَل تلك الفئة تجاه الفئـــة الأخرى، وروغان فئة عن فئة، وحِيَل المطاردة بأنواعها المختلفة.

يأتي في مقدمة إتقان فن الصيد تدريب أداته،

---

(١) نشـــرت بالمجلـــة العربية: العـــدد (٣٦٤) الســـنة ٣٢ جمادى الأولى ١٤٢٨هـــ الموافق: يونيه ٢٠٠٧م.

وأولها الـــكلاب والصقور، ومـــا في حكمها، وكلاب الصيـــد أعطاها الله من ذكاء الفطرة ما هيأها لقبول التدريب وإتقانه، والســـير على ما عُودت عليه، وعُلمته.

سأسرد هنا نصّاً أورده الفارس الأمير أسامة ابن منقذ الذي عـــاش في أواخر القرن الخامس الهجري وأوائل القرن السادس. ووصف فيه شيئاً من عجائب المعارك بين الصقور والكلاب المعدة للصيد وضحاياها من الغزلان، ومتابعة أصحاب الصقـــور والكلاب لعملها، ومدى نجاحها، وما قـــد يعترضها من الآفات غير المتوقعة، وهذا هو النص:

"وصيد الصقور بالترتيب. يرسل الأول المقدّم، فيعلَقُ بإذن غزال يضربه، ويرسل العون، فيضرب

غزالاً آخر، ويرسل العون الآخر، فيفعل كذلك. ويرسل الرابع كذلك. فيضرب كل صقر منها على غزال، فيأخذ المقـــدم إذن غزال، ويفرده من الغزلان، فترجع الصقور جميعها إليه، وتترك تلك الغـــزلان التي كانت تضربها، وهذه الكلبة تحت الصقور لا تلتفت إلى شيء من الغزلان إلا ما عليه الصقور. فيتفق أن يظهر العقاب، فتحل الصقور عن الغزال، فيمضـــي الغزال، وتدور الصقور، فكنا نرى تلك الكلبة قد رجعت عن الغزلان وقت رجوع الصقور، وهي تدور تحت الصقور في الأرض، كما تدور الصقور في الهواء حلقة. ولا تـــزال تدور تحتها حتى تترل الصقور إلى الدعو، فحينئذ تقف، وتمشي خلف الخيل".

هذا العمل المتقن المدهش الذي يقوم به هذا

الحيوان المدرب، يدل على الجهد المبذول للوصول إلى هذه الدرجة من حســـن الترابط بين الفئات المختلفة في هذه المعارك الحامية، دون خوف من الزلل، أو الارتباك، فكل يعرف دوره: انقضاض من عدد من الصقور على آذان الغزلان يربكها، يخرج أحدها علـــى طرف، فيســـتهدفه مقدم الصقور وقائدها، ويبعدها عـــن القطيع، فتراه الصقور الأخرى التي انتهى دورها بعد أن أتقنته، وتساعد القائد على إتمام إخضاع الفريسة. ولكن "لكل شيء آفة من جنسه" يتبين في الأفق عقاب وهو جارح تخشاه الصقور، فينسحب المهاجمون بانتظام، طلباً للســـلامة على أثر نداء أصحاب الصقور لها، وقد لاحظوا الخطر القادم إليها.

والكلبـــة قد أتقنت عملهـــا، فهي تحت ظل

الصقور، هي في الأرض تتبع حركتها في السماء، إن استقامت اســتقامت في سيرها، وإن دارت دارت، وإن انسحبت من الميدان انسحبت إلى قواعدها خلف خيل فرسان الصيد والقنص.

[كتاب الاعتبار، لأسـامة بـن منقذ، تحقيق الدكتور قاســم السامرائي. دار الأصالة للثقافة والنشـر والإعلام - الريـاض. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م].

الشعبي المحيّر[1]

أجـــل، إن الشـــعبي أديـــب محيّر، يشـــدك بقصصه وطرائفه، ويمتعك بأقواله، وهي أقوال متقنة، وأحاديـــث ممتعة، فيها غرائب، وتتصف بالعجائـــب، لا يفتأ يفاجئك بما أنت غافل عنه. وبعض الحوادث التي يروي أنه مرّ بها، والغرائب التي صادفته، فيها روح واحدة، تُســـرب إليك الشك، وتتساءل أكل هذه المصادفات العجيبة حدثت للشـــعبي، أو أنه ألفهـــا، أو أنها حدثت لغيره، فتبناها، وسطا عليها، وسأسوق هنا قصة

(١) نشرت في المجلة العربية بالعدد: ٣٦٣ في ربيع الآخر ١٤٢٨هـ الموافق مايو: ٢٠٠٧م السنة ٣٢.

رواها صاحب كتاب" "الحدائق الغناء في أخبار النساء" أبو الحسن علي بن محمد المعافري المالقي، وهي قصة تظن وهو يبدؤها أن لها عمقاً، ولكنها تنتهي بما لا يملأ نفسك، ولا تجد فيها إلا تبجيلاً للشعبي لا يقوم على أساس مغرٍ بالقبول، وها هي رغم أنه مهد لها بسلسلةٍ رواةٍ تبهر العين:

وهذه هي القصة، التي قد توصف بأنها جوفاء:

عن الشعبي قال:

"دخلت المسجد باكراً، فإذا أنا بمصعب بن الزبير على سرير جالساً والناس عنده، فجلست، وذهبت لأتصرف. فقال:

ادنُ.

فدنوت حتى وضعت يدي على مرافقه (أي

المخدة التي يتكئ عليها).

فقال: إذا قمت فاتبعني.

فجلست مليّاً، ثم نهض، فتوجه نحو دار موسى ابن طلحة، وتبعته. فلما طعن في الدار التفت إليّ، وقال:

ادخل.

ومضى نحو حجرة وتبعته، فالتفت إليّ، وقال:

ادخل.

فدخلت، فدخل صفّته، فدخلت معه بإزاء حجلة. إنها لأول حجلة رأيتها لأمير، فقمت، ودخل الحجلة. فسمعت حركة، فكرهت الجلوس، ولم يأمرني بالانصراف ولا الجلوس. فإذا بجارية قد جاءت، وقالت: يا شعبي، يأمرك

الأمير أن تجلس.

فجلست على وسادة. ورفع سجف الحجلة، فإذا أجمل الخلق، فلم أَرَ زوجاً قط أجمل منهما: مصعب وعائشة بنت طلحة، فقال:

يا شعبي، أتعرف هذه؟

قلت: نعم.

قال: ومن هي؟

قلت: سيدة نساء العالمين: عائشة بنت طلحة.

قال: لا. ولكن هذه ليلى، ثم أنشأ يقول:

وما زلت في ليلى لدن طرّ شاربي
إلى اليوم أخفي إحنة وأواحن
وأحمل في ليلى لقوم ضغينة
وتحمل في ليلى عليّ الضغائن

إذا شئت يا شعبي.

قال: فقمت.

ثم رحنا إلى المسجد، فإذا مصعب جالس على سريره، فسلّمت، فقال:

ادنُ.

فدنوت، ثم قال:

ادنُ.

فدنوت حتى وضعت يدي على مرافقه، فأصغى إليّ، فقال:

هل رأيت مثل ذلك الإنسان قط؟

قلت: لا، والله.

قال: أتدري لم أدخلناك؟

قلت: لا.

قال: لتتحدث بما رأيت.

ثم التفت إلى عبدالله بن أبي فروة، فقال:
أعطِه عشرة آلاف درهم، وثلاثين ثوباً.

قال (الشـــعبي): فما انصرف أحد يومئذ بما انصرفت به.

عشرة آلاف درهم، ومثل كارة القصار ثياباً، ونظرٍ إلى عائشة".

هــذا يعني بلغة اليوم إعلانـــاً مدفوع القيمة مقدماً.

لقد نظر الشـــعبي إلى نفســـه، وتبجيلها لدى مواطنيه من معاصريه، فهو مؤتمن عند أمير العراق، مبجـــل من أحد القادة البارزين، يُقرَّب، ويســـر إليه، ويؤخذ بطريقة تمثيلية فتكشف له الستر على عورات أمير البلاد، لا لشيء إلا ليقول للناس إن عائشة بنت طلحة أجمل نساء العالمين!!

نسي الشـــعبي حرمة المسجد، وجلوس الأمير على تخت فيـــه، متكئاً على ســـرر منضودة، ثم يصحب الشعبي، ويتوغل به إلى قلب داره، ليصل إلى ســـويداء ذلك القلب، ليرى الجمال في أبدع نعم الله!!

[النص من: الحدائق الغناء في أخبار النســـاء (ص ٦٢) تحقيـــق وتقـــديم الدكتـــورة عائـــدة الطيبي، الـــدار العربية للكتـــاب، ليبيا - تونس ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م].

خيال محلق[1]

رجـــل ذو فطنة، ذكي الفـــؤاد، نابه الفكر، عميقـــه. لم يتعلم تعليماً جامعيّـــاً، ولكنه يفوق بعض الجامعيين في علمه ومعرفته، وسعة ثقافته. تـــأتي منه أفكار أصيلـــة، وآراء مبتكرة، نتيجة أناته، وعمق نظرته إلى الأمور. وتأتي منه أحياناً أمور ســـاذجة لا تفاجئني ولكنها تفاجئ غيري، ويحتارون أين يصنفونه أمع السذج، أو مع منهم خلافهم. وهم لا يعرفون أســـباب وقوفه على الشـــاطئ الأيمن أحياناً، وأحياناً على الشاطئ

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد: ٣٦٢ ربيع الأول ١٤٢٨هـ الموافق إبريل ٢٠٠٧م السن: ٣٢.

الأيســـر، أما أنا فأعرف الســـبب، وهو أنه قد قرر منذ عرف نفســـه، أن يكـــون صادقاً مع نفســـه، ومع غيره، فإذا خطر في رأسه سؤال، أو استغرب شيئاً، أو لم يفهم قولاً قيل، أو فعلاً ارتكب،فإنه لا يتردد في الســـؤال لمعرفة كنهه، ولا يتهم نفســـه بالجهل وحده، ولكنه يعلم أن هناك غيره مثله، وفي موقفه، ولكنهم يستحون أن يسألوا حتى لا يتهموا بالجهل، أو قلة العقل، أما هو فمثل الطفل الذي أخذ والده يشـــرح له كيف تذوب قطعة الســـكر في الشاهي، وجاء بنظام الطبيعة في هذا المجال وافياً، ولكن الطفل سأل والده: إذاً لماذا لا تذوب الملعقة التي حركنا بها الشاهي والسكر. الطفل لم يخجل ولم يتردد، وصاحبنا لم يخجل أن يسأل: ما هو الخيال الذي

دائماً تتحدثون عنه، صبرت عن هذا السـؤال دهراً، وليس من عادتي أن أصبر، ولكني لم أهتدِ، باستقراء الأمور التي تذكرون، أن الخيال يدخل فيها، ولاختلافها، كما بدا لي، لم أجد أنها تخضع لقاعدة، ولم أتوصل، لهذا، إلى تعريف لها.

فما هو الخيال؟

قلت له أولاً: اعتقد أنت أن له دخلاً بالحصان (الخيل)، وهذا من باب جذر الكلمة، وإرجاع الأمـر إلى أصله في التعريـف والتحديد، وجمع حصان أحصنة أو خيـل، وراكبها خيال، وقد يقال لك: إن اسمهـا جاء من الخيلاء، وهذا قد يكون صحيحاً. والخيل جامحة، وهكذا الأفكار أحياناً تجمح، فتبعد عن الحقيقة، وتأتي بما يصح أو لا يصح، لا لأنه مستحيل، ولكن لأنه لم يقع

إلا في ذهن القائل الـــذي جاء به على الصورة التي اختارها.

قال: هل كل قصة، لم تقع، خيال؟

قلت: نعم، والقصص الخيالية نوعان: نوع لا يقال: إنه مؤلف أو مركب، ولكن حوادثه لم تقع، ولكنهـــا تبعد كذلك كثيراً عما يقع في الحقيقة، ونوع يقال عنه سلفاً: إنه مؤلف، ويؤمل أن يمثل المجتمع الخاص بذلك الزمن، ويؤتى به للعظة، أو لإصلاح خطأ في المجتمع، أو لرجاء تحسُّـــن فيه.

وقد يجمح الخيال، فيوغـــل في الغرابة، حتى يتعدى حدود القبول، مثل صاحبنا الذي تعدى هذه الحدود، وروى أنه كان في البرية، وأوقد ناره، وهيأ القهوة والشاي، ثم جاءته ذئاب، وسلّمت

عليـــه، وحادثته، وأخذت معـــه وأعطت، كما يفعل الرجال مع الرجال. وهو معتقد ما يقول، وخبثاء المستمعين يجارونه على هذا، وعندما يبدأ السمر يسألونه عن هذه القصة الخيالية، فيأتي بها من جديد، ولا يفتـــأ يزيد فيها وينقص، خاصة في إدخال موضوعات جديدة، تقتضيها الساعة والوقت، ولا يرى في هذا بأساً. ولعل استطراف سامعيه لهذه القصة، واستعادتها؛ يأتي من مدخل هذه الأحاديث المبتدعة، لتمثل حديث الساعة ورأيه في هذه الأحاديث والأخبار.

وقد يكون الخيال مطابقاً للواقع ســـائراً معه جملة وتفصيلاً، فتكون المتعة في حدود حوادثه، التي قد تكـــون في الواقع عدة حوادث، إلا أن خيال القاص واءم بينها، وغيّر وبدّل، حتى جاءت

قصــــة واحدة، فيها من المتعة والعظة ما فيها، مما خطط له القاص صاحب الخيال.

وقد تكون القصة في ذهن بعض من يقرؤها، أو يسمعها، قصة حقيقة، والأشخاص الذين فيها معروفـــون. وقد يرى آخرون أنها مؤلفة لخروج بعض ما فيها عما يعرفونه عن بعض الأشخاص فيها، وخير مثل لهذا قصة "شقة الحرية" لمعالي الأخ الصديق الدكتور غازي القصيبي، فرغم أنه يصر على أنها خيالية، والأشخاص الذين فيها جاء بهم من الخيال، إلا أن بعض القراء، وبعضهم يعرف الدكتور غازي، يصر أنها حقيقة وأن الشـــخص الفلاني هو غازي نفســـه، وأن فلان الفلاني هو صديقه وزميله في الدراســـة فلان، وييئس معاليه عن أن يقنع الناس بأنها خيال.

وفجأة سألني صاحبنا: وأنت ماذا ترى؟

قلت له: رغم أني لا أريد أن أخرج عن تعريف الخيال. إلا أني سأجاريك، وأقول مجيباً: إنني مع الدكتور غازي في أنها من نسج الخيال، ولكنها تمثل خير تمثيل واقع الشباب الدارس في مصر من أبناء الدول العربية في تلك الفترة، وانجرافهم عاطفياً إلى بريق بعض الدعايات القومية، ولم يدركوا حقيقة الأمر إلا بعد سنوات.

وأراد صاحبي، أن يبدأ خطّاً جديداً في الحديث ينطلق من هذه النقطة، فقلت له: إنني كنت بسبيل إعطائك قصة ممتعة ومرهبة مرعبة، يستطيع المحتارون أن يقفوا أمامها دون قرار هل صحيحة هي أم متخيلة. وقلت له: كثيراً ما حدثتك عن الوسائل التي يمكن بها معرفة الواقع

فعلاً والمختلف، وعليك بما تخرج به أن تقرر أهي حقيقة أم خيال، أم ممزوج هذا بهذا فيها.
وهذه قصة فيها متعة مغلفة بجلابيب رعب، وفيها مجال للتفكير والفحص، فإن صفا ذهنك فسوف تخرج منها برأي ثابت.

قبل حكم الملك عبدالعزيز وتوحيد المملكة كان أمن الطرق مهتزّاً، ومن بين من كان يعاني من وحشة الطرق، وقطعها من قبل أناس اتخذوا من ذلك وسيلة لكسبهم، الحجاج، فكان من بين هؤلاء السليب والقتيل. وكان هناك بعض رجال البادية الذين أتقنوا وسيلة النهب والسطو على القوافل من كثرة ما أقدموا عليها، وتفننوا في تنفيذها.

حكى أحدهم قبل عشر سنوات، وقد تعدى

سنه المئة سنة، أنه كان مع اثنين من قبيلته يقطعون الطريق، وقد اختـــاروا حجاج إحدى البلدان، لغناهم، وكثرة جمالهم، وكانوا يعرفون أنه لا بد مـــن غفلة يكون فيها فرصة للانقضاض، وإنفاذ العمل. والسارق ينام الليل هانئاً مطمئناً، فيصحو ويقدم على فعلته في خمس دقائق، والحارس يسهر طوال الليل، فتغفو عينه خمس دقائق، ويأتيه الخلل من هذه خمس الدقائق.

تبع هـــؤلاء الثلاثة القافلة الـــتي اختاروها، وســـاروا معها من مكة إلى أن وصلت قريباً من ينبـــع، ثم أراحت القافلة تحـــت جبل من تلك الجبال، وجعلت ظهر "المخيم" إلى الجبل، إتقاناً للحماية؛ لأن السارق لا يأتي من الجبل لوعورته، ثم أداروا من الجنبين "إزاراً" جعلوه حصاراً وسوراً

يقيهم من الهجوم من الجانبين، ولم يتركوا طريقاً مفتوحاً إلا طريقاً واحداً، وهو المقابل للجبل، ومنه الدخول والخروج، وأجلسوا رجلين من أشد الرجال، وأقواهم، وأكثرهم نباهة وشجاعة ومدوا بينهما حبلاً متيناً قويّاً، جعلوه يلامس الأرض بارتخاء، وأمسك كل واحد منهما بطرفه، ونام خلفهم رجال مستعدون للمساهمة إذا ما "صاح الصائح". واتُّفق أن يُترك السارق حتى يدخل، ويوغل في المخيم، وحينئذ ترفع الأصوات بطلب النجدة، والمتوقع أن يحاول السارق أن يهرب، فإذا ما وصل إلى الحبل جره اللذان قد أوكلا به، فيسقط قاطع الطريق، ويمسكونه.

وقد سار الأمر كما خطط له، وسقط قطاع الطرق الثلاثة في الفخ، وأطبق عليهم الموكلان

بالحراسة، وأمسكوهم، وجاء الرجل الذي وضع الخطة، وهو رجل كبير السن، له من تجاربه ما جعله يضع هذه الخطة المتقنة، وطلب حبالاً أبرمت على أجسام هؤلاء الثلاثة، من الرقبة إلى أخمص القدم، كما يفعل بالمومياء. وحفرت ثلاث حفر بطول كل واحد منهم، وأنزلوا فيها وقوفا، وأهيل عليهم التراب، حتى غطاهم، ولم يبقَ إلا الرؤوس الثلاثة ظاهرة. وثقل نَفَسهم، وانقطعت أصواتهم، وأصبحوا في حالةٍ الموتُ أكثر راحة منها.

عند أذان الفجر قام الحجاج، وصلّوا، وأوقدوا النار، وهيئوا إفطارهم، وتناولوه، ثم رحلوا، وتركوا هؤلاء الثلاثة في وضعهم المزري هذا. وحالتهم تسوء مع مرور كل دقيقة. ثم فجأة

نزل من الجبل ذئب يبدو عليه الجوع، يبحث عن بقايا أكل تعوّد أن يجدها بعد رحيل القوافل، وتَرْكِ منازلهم. ولاحظ الذئب الرؤوس الثلاثة، ولم يدرك كنهها، فلأول مرة يرى رؤوساً بلا أجسام، فاقترب على حذر، ثم كشر عن أنياب بغيضة، ثم بدأ يُظهر أصواتاً تدل على التحدي، يزيد فيها وهو يقترب. ولما لم يَرَ أن تحديه وجد مستجيباً أدار ظهره لهم، وأخذ يحثو التراب على وجوههم، زيادة في التحدي، وآخر وسيلة للاستكشاف، فلم يحرّك هذا من هذه الرؤوس ساكناً، ولعله بهذا كان يخشى أن تقفز في وجهه هذه الرؤوس، فأراد أن يستوثق بما لديه من وسائل.

اطمأن إلى أن من أمامه لا حول لهم ولا قوة،

والجوع يحثه على الإســـراع إلى نهاية الطريق إلى المائدة، في هذا الصباح المبشر بالخير له. اقترب من أقربهم إلى الغـــرب، وأخذ يزيل التراب من حول رقبته حـــتى أوجد مكاناً ينهش منه لحماً، وســـرعان ما توغل حتى دس أســـنانه، فأمسك بالرئة وما معها، وجذبهـــا، وأخذ ينهش منها. وفجأة انحدرت من الجبل ذئبة، يتبين من أثدائها أن لها جراءً، فطردها بعنف، وألجأها إلى الجبل. وعاد فترك الضحية الأولى، وابتدأ يفعل بالثانية مـــا فعله بالأولى، فحفر حول رقبة الثاني مثل ما حفر حول رقبة الأول، وولغ في جانب الترقوة، حتى وصـــل إلى أعلى الرئة، فاجتذبها، وما علق بها، فعلَ جزار ماهر، متقن لعمله، فعل كل ذلك بدقة وسرعة.

يقول الرجل الثالث: إنـــه كان يغمى عليّ، وأغيب عن الوعي من هول ما أرى، وأنا موقن أن الأمر أمر وقت، وأن دوري آتٍ، وقد قرب الأجل. وقد حرمنا الثلاثة من آهة الألم؛ لأننا لم نعد نســـتطيع أن نُخرج الصوت أو النّفس ولم يعد يدخل صدورنا من الهواء إلا ما يســـمح به التراب المحشو على أجسامنا في هذه الحفر التي فُصِّلت علينا، وحشرنا فيها حشراً.

قال الرجل الثالث: لقد تبلد الإحساس عندي، فلم أعد أشعر بالخوف؛ لأني دخلت في الموت، وتوغلت في دروبه، فأنا الآن أتدبر وأتبصّر فيما بدر مني من أذى لحجاج بيت الله الحرام، ضيوف الرحمن، وبئس ما كنا نستقبلهم به، وأدركت أن هذا عقاب من الله، وجاء متســـاوياً مع إلحاحنا

في الأذى، وإصرارنا علـــى التعدي والإجرام، ورجوت أن يكون مـــا نحن فيه من هول تكفير من الله لنا في الدنيا عن الآخرة.

قـــال الثالث متابعـــاً وصفه لهـــذا الموقف المخيف:

بدأت الشمس تبزغ، فأقبل الذئب عليّ، وأنا مغمض العينين، لئـــلاّ أرى وجهه القبيح، وجه القاتل الذي لا حيلة لي ولا حول لمقاومته، وهذا غاية القهر والإذلال. فحفر بجانب كتفي، وكان ظل رأسي طويلاً، فحفر وعمّق، ولم أكن أعرف هدفه مما فعل خلافاً لزميليّ الســـابقين. ولم يطل الأمر بي، فقد تبين الهدف من هذا الحفر الطويل العميـــق، لقد شـــبع، وأراد أن يغفو، وطلعت الشمس، وآن له أن ينام، فهذا وقت نومه، وقد

أوجد مفحصاً يظله من الشـــمس، حتى ترتفع في وسط السماء، ثم نام، وأخذ الذباب يتجمع على الدماء التي حول فمه، وأخذ نَفَســـه يرتفع وينخفض بانتظام وعمق، فغبطته على ذلك، وأنا المحروم من ربع معشار نَفَسه.

قـــال: لقد أتـــاح لي الحفر الـــذي قام به أن أحرك نفسي قليلاً، خاصة رقبتي، وكنت حذراً، خوفاً من أن يستيقظ. ثم قست المسافة بين فمي ورقبتـــه، فوجدت أني أســـتطيع أن أصل إليها. وبروح اليائس وقوتـــه انقضضت على رقبته، وكلّبت أســـناني فيها، وأطبقتها إطباق من لم ينوِ فكهـــا أبداً، فتنبه الذئب مذعـــوراً، ولم يدرِ ما حل به، وأخذ يحـــاول أن يتخلص، و"يماتل" ما أمكنه المماتلة، يجر نفســـه بعيداً، وكنت أجد في

هذا فائدة؛ لأنه يرفعني، ويترل التراب قليلاً، ولم يدم الأمر إلا لحظات، فانفلت بقوة، وأخذ معه أسناني، وركض إلى الجبل، ولم يلتفت خلفه. أخذت أتحرك يميناً ويساراً، وفي كل حركة تترل حبات من التراب تحت أقدامي، حتى خرجت من الحفرة، ولكن كيف أخلص نفسي من هذه الحبال.

أمّلت أنه لا يزال في النار، التي كان القوم هيؤا عليها إفطارهم، بقية من جمر تحت ما بدا من رماد، فتدحرجت حتى وصلت إليها، وألقيت بظهري عليها، فتبين أن فيها جمراً، أحرق الحبل، وأحرق معه ظهري. ثم كشف ظهره لمن حوله ممن يستمع لحديثه هذا، فوُجدت آثار النار على ظهره كله كأنما كان به برص. وتابع حديثه،

فقال:

استقبلت القبلة، وسجدت شكراً لله، ثم أعلنت توبتي، وحصرت جهدي في دفني لرفيقيّ. وقد أوسع الله عليّ في الرزق، فعندي اليوم ذود من الإبل، وقطيع من الغنم، وليتني أعرف الذي سرقتهم، وآذيتهم، وروعتهم، وقد أكون تسببت في أشد من ذلك، والله أسأل أن يغفر لي، ولرفيقي اللذين عانيا من الرعب، وهما ينظران إلى الموت يزحف نحوهما، ما الله به عليم.

قال صاحبي: خذ بنا في حديث أبهج من هذا، فإني أخشى ألا أنام الليلة بسهولة بعد هذه الصورة المزعجة المرعبة، وإن نمت فسوف تكون أحلامي رعباً في رعب، فقد أراني أحد التعيسين اللذين أفطر بأحشائهما الذئب. وعلى ذكر النوم

وسرعة مجيئه إلى الإنسان عندما يضطجع لينام، أو بطئه إلى حد السهر، لقد توصلت إلى وسيلة تُدخل في النوم بسهولة، أفلا أقولها لك؟ قلت بلى، قال:

عُدَّ نفسك شخصاً أعطاه الله ميزة تجعلك مبجلاً عند الناس؛ لأن عندك ما يفيدهم مما لم يجدوه عند غيرك ممن لجؤوا إليه فلم يُفدهم فيما قصدوه، وخاب أملهم، فمثلاً أعطاك الله قوة مغناطيسية، أو كهربائية، بحيث إنك إذا لمست رأس من ابتلي بالصداع النصفي، يشفى - بإذن الله - بمجرد أن تضع يدك على رأسه. وتصور أن الناس أخذوا يأتونك من أطراف البلاد، ثم من أطراف الدنيا، وصرت مرفقاً سياحيّاً، واضطررت أن تنتقل من بيتك إلى بيت أكبر منه

عشرات المرات. ثم زاد دخلك - رغم أنك لا تطالب الناس مقابل علاجك لهم بشيء - إلا أنهم - حمداً لله وشكراً له - وعرفاناً بجميلك ينفحونك مبالغ لم تخطر على بالك. ثم بدأت، في إظهار حمدك لله على هذه النعمة التي وهبك إياها، تساعد الفقراء، وفكرت في أن تبني داراً للضيافة، تبعتها أخرى وأخرى، حتى شكاك أصحاب الفنادق والشقق المفروشة، فأسكتّهم بأن أخذت منهم بعض الشقق والأجنحة، وسكنت فيها قاصديك.

ثم اكتشفت عرضاً أن هذه المغناكهربائية تفيد في القضاء على الروماتيزم، فانفتح باب جديد لإراحة الناس وإسعادهم، وأصبح من لم يكن يمشي إلا على عصا، وبألم ممضٍ، أصبح يمشي

راقصاً، وتصور أنك أخذت من الجوائز المحلية والعالميـــة، والدكتوراهات الفخرية ما لا يحصى عدّاً.

هنا أريد أن أقف فحسب تجربتي لا أذكر أني وصلت إلى هذه المرحلة، فقد كان النوم يداهمني في الغالـــب قبل أن أفتـــح دور الضيافة، أو أن أضايق أصحاب الفنادق.

ثم التفت إليّ صاحبي هـــذا، وقال: ألا تريد أن تجرب هذه الطريقة، وأنا كفيل أنك ســـوف تحمدها. فقلت: ســـوف أجربهـــا فلا ضرر من ذلك.

ثم نظرت إلى ساعتي، ووجدت أن الوقت قد ســـرقنا، ولم أمل حديث صاحبي، ولكن موعداً آخر قد قرب. فقلت له خاتماً هذا الحديث:

هل تذكر كيف بدأ حديثنا هذا قبل أن نستطرد إلى قطاع الطرق، والذئاب؟ وعلى ذكر الذئاب هل تعلم أن الناس إذا جلسوا في مجلس، وجاء ذكر الذئاب أو الجن، أو الأفاعي، يمر الوقت دون أن يتنبهوا؛ لأن القصة في هذا المجال تتلو القصة. ويستمر الحديث، ولا ينقطع عن الجن والذئب والحيات.

لم تجبني عن سؤالي كيف بدأ حديثنا، وما دمت لم تجب، أنا أجيب. بدأناه عن سؤالك ما هو الخيال، قصتك، يا صاحبي، عن سهولة جلب النوم هي أم الخيال وأبوه. فأنت موغل في الخيال دون أن تدري أن بضاعتك منه وافية.

الجاحظ وإحدى قصصه[1]

الجاحظ شـــخص بارز في الأدب، بَيَّنَ سعة ثقافته فيما كتبه من كتب لمســـت شُعباً مختلفة في الفكر، له أســـلوبه المتفرد، وطريقته المتميزة في الكتابة، جذاب في أســـلوبه، متقن لخططه، ممتع فيما يطرقه، يساعد على هذا روحه التي لا تكاد تغيب عن جملة من جمله، في كتابته وضوح، وفي قوله بيان، سَـــنَّ في الكتابة طريقاً أصبح له فيه مريدون، وأبرز مـــا في هذا ترادف الجمل، وترادف الأفكار، ومن هـــذا يأتي الوضوح في

---

(١) نشـــرت في المجلة العربية، العدد: (٣٩٠)، رجب (١٤٣٠هـــ) يوليه (٢٠٠٩م).

الفكـــرة، وتناغم القول، ورروحه المرحة لا تكاد تغيب عما يكتب.

تكون الفكرة في ذهنه، فيصوغها بأســـلوب قصة يركبها علـــى من يعرف أو لا يعرف، ولا يهمه أحياناً أن يُحتج عليه من معاصريه، يسمع اللوم، وكأنه في داخل نفسه يقول:

قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذبًا
فما اعتذارك من قول إذا قيلا

تميل قصصه إلى الفكاهة، ولكنها لا تخلو من فكرة قد تكون بعيدة الغور في الوعظ والإرشاد، أو انتقاد ظاهرة من ظواهر المجتمع، وعنده مجتمع يساعده على طرق الأبواب المختلفة التي يراها، وأمورها تصطفق اصطفاق الماء في بئر واســـع، أو بحر لجي يصطخب فيه الموج ويتلاطم، مجتمع

فيه لكل دارس منحى، وما على من التفت إلى الإصلاح أو النقد إلا أن يلتفت التفاتة متأنية، فيجد بغيته، والجاحظ دائماً مستعد، وليس هناك ما يجهده إلا مسكة القلم، فالصورة في ذهنه واضحة، والفكر مستعد، والأسلوب طوع اليد، والخطة تأتي متواثبة.

والجاحظ إذا لم يجد من يُركِّب عليه قصة طريفة ركبها على نفسه، مثل قصته مع المرأة التي أخذته من يده إلى الصائغ، وقالت: "مثل هذا"، فلما ذهبت سأل الصائغ عن قصدها، فقال: إنها أعطتني خاتماً وقالت: انقش عليه صورة شيطان، فقلت لها: إني لم أَرَ شيطاناً في حياتي، فقالت: أنا آتيك بواحد، وأتت بك. أراد بتلفيق هذه القصة بهجة القارئ، ولم يلتفت إلى تقريره بنفسه

مدى قبح وجهه.

يا تُــرَى، هل القصة الآتية مؤلفة أو إنها فعلاً قد حصلت؟ وأشعر أحياناً أنه والأصمعي أخوا رضاع؛ لتشابههما في هذا المنحى:

قال الجاحظ:

رأيت مجنوناً بالكوفة، فقال لي:

من أنت؟

قلت: عمرو بن بحر الجاحظ.

قال: يزعم أهل البصرة أنك أعلمهم.

فقلت: إن ذلك قيل.

قال: من أشعر الناس؟

قلت: امرؤ القيس.

قال: حيث يقول ماذا؟

قلت:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً
لدى وكرها العنّاب والحشف البالي

قال: فأنا أشعر منه.

قلت: حيث تقول ماذا؟

قال: حيث أقول:

كأن وراء الستر فوق فراشها
قناديل زيت من وراء قرام

(القرام: السِّتر الملوّن).

فأينا أشعر؟

قلت: أنت.

قال: فأيهما أقوى الماء أو الريح؟

قلت: الريح.

قال: لم تصب.

قلت: وكيف؟

قال: يقع الثوب في الماء، فيبتل في طرفة عين، ويبسط في الريح فلا يجف إلا بعد ساعات. أصبت أم أخطأت؟

فقلت: أصبت.

أما أنا فإني متأكد أن الجاحظ ألف هذه القصة لينتقد امرأ القيس، فإن وافقه الناس ابتهج، وإن لم يوافقوه قال: إن هذا رأي مجنون، وناقل الكفر ليس بكافر.

يلاحظ استعماله كلمة "قرام" حتى يعطي بيته قوة.

أما أنت أيها القارئ، فلك رأيك!!

وقد ختل الجاحظ القارئَ، فقال على لسان المجنون: إنه أعلم أهل البصرة، فهل حقّاً ختلني. وإياك أيها القارئ؟

العقل أم الشجاعة؟[1]

الإنســـان أحياناً يحتار بين أمرين، كل واحد منهما متميـــز في حدوده، جـــذاب في مظهره ومخبره، والحيرة تأتي عندما يكون المرء مجبراً على أن يختـــار واحداً من الأمريـــن، وليس كلاهما، وأمامنا الآن خيار بين العقل والشجاعة، وهما في بعـــض المواقف، أو لعلهما في أغلبها، يتضادان، فالعقل يقتضي الحذر، وطول التفكير والأناة قبل التصرف، ويقتضي كدّ الذهن لســـلوك الطريق الموصل للسلامة والأمان. ولنتيجة تتجمع فيها

---

(١) نشـــرت في المجلة العربية: العدد (٣٩١)، شعبان: ١٤٣٠هـ الموافق أغسطس ٢٠٠٩م.

الفوائد المتكاملة، والفلاح الواضح. والشجاعة يقدم عليها المرء أحياناً باندفاع لم يسبقه تأنٍّ أو تبصر أو حذر، ولم تواكبه روية أو تمعن، ولم تقلب فيه الأمور على وجوهها المختلفة.

وآفة الشجاعة أن مسبباها تأتي أحياناً مفاجئة، تدخل على الإنسان اقتحاماً من النافذة، ولا تطرق الباب مستأذنة بالدخول، وما دام الأمر لم يعطِ العقل وقتاً للتفكير، فلم يبقَ إلا سرعة تصرف الأعضاء، والاستفادة من العضلات القوية المدربة، ولعل أقرب ما يأتي إلى ذهني في هذا الأمر القصة الآتية:

"هوت جرة نحو يزيد بن المهلب، فلم يتوقها، فقال له أبوه:

ضيعت العقل من حيث حفظت الشجاعة

(الأجوبة المسكتة لابن أبي عون، ص: ١١").

يحدث هذا كثيراً في هذه الحياة، فيسقط شيء لم يكن متوقعاً سقوطه، فيقفز القاعد بقرب مسقطه، مما قد يستوجب ضحك من حوله، وبعض الناس أعصابه قوية، فلا يفزعه هذا، ولا يهمه أمر ما حدث، بل لا يلتفت ليرى ما حدث، وقد يكون فيه له ضرر، ولكنه يجب أن يعرف الناس عن قوة ثباته، ورباطة جأشه، ويروى عن أناس بارزين في مجتمعات من مجتمعات العرب السابقين، منها أن أحدهم، وكان كبير قومه، كان جالساً في صدر المجلس، وعندما انفض السامر قال لخادمه: إن هناك شيئاً في ظهري قد ضايقني، فلما كشف ظهره وجد عقرباً قد عاثت في ظهره، وكان ظهره - كما يقول الراوي -

حمراء أشـــبه برئة الخروف، على كل حال كان هذا الرجل مشهوراً بالشجاعة.

سجال المعاني والألفاظ[1]

الألغاز مـــن الأقوال التي تجتذب الســـامع، وتســـتولي على انتباهه، لما فيما من روح الغرابة التي تشحذ عند الإنسان حب الاستطلاع، فلا يكاد يسمع لغزاً حتى يستولي على تفكيره، يريد أن يحل غامضه، ويجد الطريق إلى كنهه، يزيد في حماســـه لحله ما يحمله اللغز من مظهر التحدي، ويحميه من ســـرعة الحل ما يحمله من إيهام كلما ظن الشـــخص أنه اقترب من مغاليقه نبهه جزء منه إلى أنه أبعد ما يكون عن الحل، تقربه كلمة

---

(١) نشـــرت في المجلة العربية، العدد (٣٨٩)، جمادى الآخرة ١٤٣٠هـ الموافق يونيه ٢٠٠٩م.

في اللغــز وتبعده أخرى؛ وقــد يفتح الله عليه بعد تفكير عميق، ومحاولة متكررة، وقد تسعفه المصادفة.

وبعض المُلغِزين عندما تنغلق الأبواب أمام من يحاول حلّ اللغَز يفتح نافذة ضيقة في اللغز تحصره في دائرة أضيق من السابقة، وقد تفيد هذه، وقد تزيد الأمر إبهاماً، وفي هذه لذة للملغز، ويصبح الأمر جهاداً ومطاردة، ورياضة للفكر تأخذ يميناً ويســاراً. وقد يغلب عليه اليأس، أو ينفد عنده الصبر، فيرفع يديه مستسلماً، ويطلب حل اللغز من ملقيه. وقد يكون هناك رهان، وبعض الألغاز تأتي شعراً، وهذا يدخله في طبقة الألغاز الراقية، المغرقة في الإبهام والإيهام، وقد يشترط أن يكون الحل شعراً.

أمامي الآن لغز تتوافر فيه المظاهر الموهمة التي أشـــرت إليها، لأن مظهرها يدعو إلى الدهشة، ويؤدي إلى التعجب، ويوحي بالاســـتحالة؛ لأنه يوهم أن فيه مخالفة صريحـــة للدين من جوانب عديدة، وهي ضربـــة عنيفة تترل على ذهن من طُلب منه حل هذا اللغز الموهم:

وهذا هو اللغز:

"قيل لأبي عالية الرياحي: كيف أصبحت؟

قـــال: أصبحت على خلاف مـــا يحب الله، وخلاف ما يحب الشـــيطان، وخلاف ما أحب أنا.

قيل كيف؟

قال: لأن الله يحـــب أن أطيعه، ولا أعصيه، ولســـت كذلك، والشيطان يحب أن أعصي الله

وأطيعه، ولســـت كذلك، وأحب ألا أهرم، ولا أمـــوت، ولا أفتقر، ولســـت كذلك (الأجوبة المسكتة لابن أبي عون: ص ١٢).

وقد تعود الناس أن يبادروا بسؤال من يقابلون في الصبـــاح بجملة: كيـــف أصبحت، أو كيف الصحة، أو كيف الحـــال، وعندما كنت وزيراً للصحة كنت أقول لهم: لا تسألوا عن الصحة، فجواب هذا يطول، ولكن اســـألوا عن الحال، وقد غلب جوابُ أبي العالية جوابي.

عقل في رأس مجنون[1]

يقول العامة عندما ينطق مجنون بحكمة بالغة، أو يــأتي بما يدل على عقل ورزانة، في حين أنه لم يتوقع منه ذلك، بل خلافه وخلافه: "كلمة عاقل في رأس مهبول".

وهذا أمر يتكرر؛ لأن الناس إذا استقرؤا حالة شخص، ولم يجدوا بدّاً من وصفه بمجنون، لما يأتي به خلافاً لما اعتاد عليه مجتمعه، فإنه إذا فاجأهم بما يخالف القاعدة التي وضعوها له تصيبهم الدهشة، ويغلبهم العجــب، ويقرون أن في إناء العقل ما

---

(١) نشــرت في المجلة العربية، العــدد (٣٨٨)، جمادى الأولى ١٤٣٠هـ الموافق ٢٠٠٩م.

يستحق أن يوصف بأنه ثمرة جيدة نبتت فيما ظن أنه لا ينبت إلا شوكاً.

اهتم الأقدمـــون بتدوين بعض ما لاحظوه في هذا المجال، فجاؤوا بطرائف وأعاجيب، وهي بلا شك تستحق أن تدون، وأن ينفق فيها وقت وحبر وورق، وتكون تحفـــة يخلدها ما فيها من صدق وصحة مأتى، وسداد سير، وإصابة هدف.

ومن الكتب التي اهتم بهذا كتاب لأبي القاســـم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري، اختار له اسماً معبراً خير تعبير "عقلاء المجانين".

والعنوان نفســـه يلفت النظر؛ لأنه يجمع بين متضادين العقـــل والجنون، وهمـــا لا يجتمعان عادة، ومتناقضان، وهذا سبب جاذبية العنوان، والشوق إلى معرفة ما أدرجه النيسابوري تحته،

وما أدرجه فيه استقصاء وانتقاء يستحق أن يفرد له كتاب.

وهــذا موقــف مــن مواقف أحــد عقلاء المجانين:

"قال ضمرة بن ربيعة:

وقف عليّ معتوه، فخنقني وقال:

تعلم.

قلت: خلّص عن حلقي.

فخلّى، ثم قال:

الشــر نذالة، والعفو كرم، والاستقصاء غم، وشفاء الغيظ بلية"[1].

كلمات هي الدرر بعينها، وحِكم نظمت في سلك من حرير أصل، كل واحدة منها يستحق

---

(١) عقلاء المجانين، للنيسابوري، ص: ١٤٣.

أن يكتب عنه مقال منفرد، ولعل مظهر الجنون في هذا الموقف يقتصر على الطريقة التي افتتحت بها الموعظة، وهي الأخذ بتلابيب الرجل، ولعل الله – سبحانه وتعالى – هدى هذا المعتوه إليها حتى يكون لما بعدها وقعه، ولتمهد للتسامح مع الواعظ لما يتصف به من عته.

بين اللسان والأذن[1]

لا تكاد تحصر الأقــوال التي قيلت في فضل الصمت، وكبح جماح اللسان، ولا تكاد تحصى الحكم الكثيرة التي سجلت عن ذلك في الكتب، والتي تجري اليوم على ألســـنة الناس. فالكتب ملأى بالتحذير من النطق، والحث على الصمت، وما يأتي من الصمت من خير، وما يأتي من الكلام من شر.

في كتاب "روضـــة العقلاء، ونزهة الفضلاء" للحافظ البستي (بدءاً من ص ٤١) أقوال عدة،

---

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد (٣٨٧) ربيع الآخر ١٤٣٠هـ الموافق إبريل ٢٠٠٩م.

مع أشعار حَلَّتْ بعض جوانب القول، ومن هذه الأقوال ما هو شـــريف مثـــل قوله ﷺ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يصمت.

وجاء في أحد الأقوال: "اللســـان هو المورِّد للمرء موارد العطب" وقيل: "الصمت يكسب المحبة والوقار". وقيل: "من حفظ لســـانه أراح نفسه". وقيل: "الرجوع من الصمت أحسن من الرجوع من الكلام".

قال لقمان: "إن مـــن الحكم الصمت وقليل فاعله". وروي عـــن مالك بن أنس قوله: "كل شيء ينتفع بفضله إلا الكلام، فإن فضله يضر". وقال الأحنف بن قيس: "الصمت أمان من تحريف اللفظ، وعصمة من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول، وهيبة لصاحبـــه". وقال كعب: "العافية

عشرة أجزاء، تسعة منها في السكوت".

وما يذكـــره العامة قولهـــم: "قيل لرأس من قطعك؟ قال: لساني". ويرددون القول الشريف ومعناه: "لا يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصاد ألسنتهم". ويقال كذلك: "من سكت ســـلمْ"، "وإن البلاء موكل بالمنطق"، و"من كثر كلام قل احترامه".

وما حداني إلى التطرق إلى هذا، رغم إدراكي أن قليلاً من الناس لا يعرف الأقوال التي سقتها أني قرأت قولاً أعجبني في هذا الباب هو:

"اجتمع قوم بباب الأوزاعي يتذاكرون ورجل من كلب ساكت، فقال رجل:

بِحَقٍّ سُمّيتم خرس العرب.

فَقال له: يا هذا، أما علمت أن لسان الرجل

لغيره، وسمعه له". [الأجوبة المســكتة لابن أبي عون ص: (١٢)].

إضاءة الحزم[1]

مواقف الحزم لا يعرفها إلا الراسخون في العلم، فليس من السهل على الإنسان أن يقرر أن يتخذ الحزم مطيته في أمر من الأمور، أو يتخذ التساهل مركبه، وأكبر ضرر يأتي من الخلط بين الاثنين، وعلى من يقف على المفتــرق بين الطريقين أن يكون ثاقب البصيرة، يزن الأمور بميزان اللؤلؤ والجواهر، وأن يعرف ما هو الذي يجب أن تحمرّ له العين، أو يُغض عنه البصر.

ومعاوية يوصف بصفات عديدة، منها ســعة

---

(١) نشــرت في المجلة العربية، العــدد: (٣٨٥) صفر ١٤٣٠هــ الموافق: ٢٠٠٩م.

الصدر، وقوة التحمل، وغض البصر، والتساهل في حقه، إلا أن هذا لا يعني تساهله في حق الآخرين. ففي هذه الحالة يأخذ بالحزم، ويضع الأمور في نصابها، بعد أن يحاول بعض جلسائه أن يخرج عن الخط المرسوم، ويحدث مشكلة لا داعي لها، جهلاً، أو تغابياً، لهدف غير نبيل. في هذه الحالات يزأر معاوية الأسد، وينقض معاوية العقاب، ويصهل فيه الحصان الأصيل، ويسل معاوية سيف الحزم لامعاً وهّاجاً، ولا يبالي؛ لأن الإهانة لم توجه له وحده، بل وجهت إلى من لا يجب أن تأتيه إهانة ممن لمعاوية صلة به، وفي مجلسه وعلى رؤوس الأشهاد.

ومعاوية بهذا لا يسير في سياسته على طريقة واحدة جامدة، فسياسته التي وضع لها إطاراً

عاماً لا تستعبده، ولا تجعله قيد أمرها، مطواعاً لإشارتها، بل يتصرف فيها كما يشاء، وهو الذي وضعها، وهو الذي إن شـــاء أنفذها، وإن شاء أوقفها، وإن شاء عدل فيها أو أبطلها، وقد قابل حالة اســـتوجبت أن يتجهم خلافاً للمعتاد منه، وأن يخرج عما عرفه الناس عنه من هدوء وأناة وصبر، ومن قرأ القصة التي أوجبت هذه الفورة، أدرك السبب، وعرف مرامي الأمر، وزاد تعظيمه لمعاوية، ولصواب تصرفاته، إن في وقت الحزم، أو في وقت التساهل، والتغاضي عن الأخطاء:

"كان معاوية يأذن للأحنف في أول من يأذن له، فأذن له يوماً، ثم أذن لمحمد بن الأشـــعث، فجاء محمد فجلس بـــين معاوية وبين الأحنف، فقال له معاوية: لقد أحسست من نفسك ذلاًّ،

إني لم آذن لــــه قبلك ليكون في المجلس دونك، وإنّا كما نملك أموركم نملك تأديبكم، فأريدوا ما يراد منكـــم، فإنه أبقى لنعمكم، وأحســـن لأدبكم".

لم يسكت معاوية على هذا الخطأ، ولم يتغاضَ عمن أراد أن يفسد خطته، ولا من يربك ترتيبه، فسرعان ما وضع الأمور في نصابها، وكأنه يطبق المثل العامـــي: "إن كنت هامان فأنا فرعون" في الدهاء والنباهة، وإبقاء المعتدل معتدلاً، وتقويم المعوج.

إن الأحنـــف رجل قبيلة قيس، وخلفه آلاف من السيوف، يأتمرون بأمره، وينتظرون إشارته، ولما عرف من عقله الرزين، وحكمته البالغة يراه معاوية ذخيرة لا يجوز أن يستهان بها أو تهان، أو

يقلل من قدرها، خاصة وأن ذلك جاء ممن ليس في مترلة الأحنف. لهذا انتفض معاوية، وخرج عن طوره المعتاد، ولم يُسِرَّ بتأنيبه لابن الأشعث، أو يُسرّ لمن يكون رسولاً منه إليه، وإنما قالها معاوية صارخة على رؤوس الأشهاد، ليعتبر من عنده استعداد للاعتبار، ومعاوية هنا لم يغمض على القذى، ولعل محمد بن الأشعث تمنى أن الأرض ابتلعته قبل أن يأتيَ منه ما أتى.

وللنية هنا دخل كبير، فمحمد بن الأشعث ظن أنه بهذا ختل معاوية، ليصعد على أكتاف الأحنف، فأركس. وقد خاب ظنه، واختل ختله.

النحل والوضع[1]

نحل القصص، ووضعها على ألســـنة الناس، ووصف أحوال تُعُمّد أن تبنى من الخيال، وتركب بطريقة متقنة أحياناً، لقدرة واضعها على الافتعال في ضوء معرفته بمجتمعه، وما يدور فيه، بحيث لا يأتي في القصة نبوّ ولا استحالة، ولكن أجزاءها مما لا يستغربه الناس، ولا يستبعدون وقوعه.

وأسباب النحل والتقوّل هذه يكمن وراءها بواعث وأهداف تبرز في ذهن الواضع وضعها، ومن بين الأهداف التســـلية، وإشاعة الطرافة،

---

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد: ٣٦١ السنة ٣٢ في صفر ١٤٢٨هـ/ مارس ٢٠٠٧م.

أو وسم خصم للنيل منه، أو إغاظته، أو إنزال قدره، أو تقليل شأنه؛ لأنه منافس في المهنة، أو في حرفة الأدب، أو من قبيلة تنافس قبيلته، وتجاذبها الفخر، أو الحظوة عند الحاكم.

وقد سجل الأدباء كثيراً من هذه الأخبار المنحولة، وتفننوا في ذلك، إما بالتحريف، أو بالزيادة، أو بالنقص، أو بالوضع الكامل، والنحل الضافي. وقد عرف بعضهم بهذا عن يقين، أو عن ظن. وحاول بعض هؤلاء إخفاء دورهم في النحل بسلسلة رواية افتعلوها، كل أصحابها أموات، أو مجهولون، ولأنها أخبار ليست في أمور الدين، فلم تُحقق، ولم يفحص رواتها. بل إن بعض من يرويها شاكّاً فيها يتركها على علاتها؛ حتى لا تضيع على السامع أو القارئ لذة المتعة، وحلو الطعم.

والعصر العباسي، وهو عصر التدوين الكثيف، والتسجيل الثر، حَظي بكثير من تراث منحول، إما عن العصر الأموي، أو ما سبقه، أو عن العصر العباسي نفسه، وأحياناً يروي القصة من ليست في صالحه، وينقلها، حـــتى لو كان فيها ثلب له أو لقبيلتـــه، أو أهل مهنته، حتى يضيف إليها ما يقلب الكفة، فتكون مدحاً له، وذمّاً لمنشـــئها الأصل، ومـــا على التالي إلا أن يختم القصة برد يلحقه بآخر حجة قيلت. وتطول بذلك سلسلة النحل.

ولعل هذه القصص الطريفة مع ما يبدو فيها مـــن خلل إلا أنها مثل "النكت" اليوم إذا أقبلت لا ترد، حتى إذا كانت على القائل نفســـه؛ لأن الهـــدف معروف، ومتحقـــق، وكثيراً ما غيرت

الأسماء بأسماء، والمدن بمدن، والصفات بصفات، فانقلب الأمر رأساً على عقب، فصار الممدوح مذموماً، والمذموم ممدوحاً.

والنحل مهنة، تتقنها الدربة، وتكمل إخفاءها التجربة، فالناحل يعـــرف المحيط الذي هو فيه جيـــداً، ويعرف ما هو مقبـــول. وما قد يكون مرفوضاً، فيقدم على الأول، ويكثر منه، ويبعد عن الثاني، ويتجنبه، ويحـــذره. وفي النهاية، أو لعله منـــذ البداية، يختار الإطار الذي توضع فيه الصورة الملفقة؛ حتى لا يكون للشك مدخل، ولا لسوء الظن مجال. ومن الأطر المفيدة في هذا أن تروى القصة مثلاً عن رجل له مقامه في الأدب، وله قبول عنـــد الناس، إما لدينه، أو لحفظه، أو لذاكرته في حفظ الشعر والنثر، أولهما مع قربه

من مســـرح القصة، مثل قربه من بلاط الحاكم، إن كانت القصة عن الحاكم وجواريه أو غلمانه، أو جلسائه، الموالين له، أو المعادين.

والأصمعي والشـــعبي من المكثرين للرواية، ولعله من الصعب أن يفـــرق المرء بين ما قالاه حقّاً، وما لفق عليهما وروي على لســـانيهما، ولكن الفحص الدقيق قد يرجح أصالة النص أو نحلــه، خاصة إذا كان الموقف جرف الناحل إلى مواقع في القصـــة تتنافى مع الواقع والطبيعة، أو النصوص الثابتة في مراجع أخرى، لا تصل إليها الشبهة مثل القرآن أو السنة.

وهنا قصة وردت في كتاب: "الهفوات النادرة" لغرس النعمة أبي الحســـن محمد بن هلال الصابي ص ٨٠، يقول فيها:

حدث أبو الخطاب زياد بن يحيى قال:

حدثنا الهيثم بن الربيع قال:

حدثنا الهيثم عن الشعبي (عامر بن شراحيل الشعبي الحميري، راوية من التابعين، عرف بالحفظ) قال:

أرسل إليّ عبدالملك بن مروان، وهو شاكٍ.

فقلت: كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟

قال: أصبحتُ كما قال ابن قَمِيئَة، أخو بني قيس بن ثعلبة.

قلت: وما قال؟

قال: قال:

كأني وقد جاوزت تسعين حجّة

خلعت بها عني عذار لجامي

رمتني بنات الدهر من حيث لا أرى
فكيف بمن يرمـــى وليس برام
فلو أنـــني أرمى بســـهم رأيته
ولكنـــني أرمـــى بغير ســـهام
إذا ما رآني الناس قالوا ألم يكن
حديداً شديد البطش غير كهام
فأفنى وما أفـــنى من الدهر ليلة
ولم يُغن ما أفنيت ســـلك نظام
على راحـــتيّ مرة وعلى العصا
أنـــوء ثلاثـــاً بعدهـــن قيامي

قال الشعبي: فقلت:

لا، ولكنك كما قال لبيد بن ربيعة.

قال: وما قال.

قلت: قال:

راحت تشكّي إليّ النفس مجهشة

وقد حملتُك سـبعاً بعد سبعينا

فـإن تزادي ثلاثـاً تبلغي أملاً

وفي الثـلاث تمـام للثمانينـا

فعاش والله بعد ذلك حتى بلغ تسعين حجة، فقال:

كأني وقد جاوزت تسعين حجة

خلعت بها عن منكـبي ردائيا

فعاش والله حتى بلغ عشراً ومئة، فقال:

أليس في مئة قد عاشـها رجل

وفي تكامل عشـر بعدها عِبَر

فعـاش والله حتى بلغ عشرين ومئة، فقال:

عُمّرت حيناً بعد مجرى داحس

لو كان للنفس اللّجوج خلود

فعاش والله حتى بلغ أربعين ومئة، فقال:

ولقد سئمت من الحياة وطولها
وسؤال هذا الخلق: كيف لبيد؟

فقال عبدالملك: والله لقد ذهب بحديثك عني البأس، فاقعد يا شعبي، عندي، ما بيني وبينك إلا الليل، فحدِّثني.

قال: فحدّثته حتى أمسيت، وانصرفت، فمات والله في جوف الليل".

وفي الأغاني: "وأمـــر لي بأربعة آلاف درهم، فقبضتها وخرجت، فما بلغت الباب حتى سمعت الناعية عليه".

هذه قصة طريفة مســلية، ولكن قسطاً من طرافتهــا يتلاشــى عند الفحص والتشــريح. والــراوي أتقــن اختيار الإطار لهــا، فألصقها

بالشعبي، والشعبي عُرِفَت عنه الأخبار الطريفة، وعرف بمجالسته للخلفاء، وبالذات لعبدالملك ابن مروان، إذ كان نديماً له وسميراً، ورسولاً إلى ملك الروم، وصار قاضياً على عهد عمر بن عبدالعزيز، وكان أديباً شاعراً، ولهذا فهو خير من يختار لهذه القصة الممتعة. وكان من الأهداف الرئيسة، سواء كان الناحل الشعبي، أو أنه ضحية علمه وأدبه، ركبت عليه هذه الرواية، استعراض الحفظ للأشعار، والله أعلم إن كان كل ذلك قاله لبيد، والله أعلم إن كان لبيد عمّر حتى هذه السن، المهم أن الشعر روي وشاع وذاع، وثبت في أذهان الرواة، وفي ذاكرة العصر. ومهم كذلك أن الخليفة استقبل الشعبي، وأبقاه عنده حتى الصباح، ولنا أن نسمح لأنفسنا

فنتصور أنهما وحدهما معاً طوال الوقت، والشعبي من قصة لقصة ومن شعر إلى شعر ومن نثر إلى نثر.

ولبيد سار على قاعدة ثابتة لا يقول البيت أو البيتين إلا بعد أن يمر عشر سنوات، وكأنه ضامن لهذا. ولم يتنبه الراوي إلى أنه في القرن الخامس عشر الهجري سيأتي من يشكك في هذا ويرفع حاجباً، وهو يقلب الأمر. ولا أدري لماذا وقف الراوي - هداه الله - عند هذه السن، ولم يوصلها إلى الخمسين، حتى تجلس على كرسي مريح لها ولنا.

وإذا صح أن عبدالملك، وهو الخليفة الفقيه، ويرى الموت قريباً منه، لم يلتفت إلى الدين في مثل هذه الحالة، وعمد إلى الشعر، والروايات

تقول: إن الخلفاء في مثل هذه المواقف يحرصون على الاستغفار والتوصية، لا منادمة الأدباء والشعراء. واستنهاض همم الأطباء، وتناول الأدوية، وتقريب الأهل والأبناء.

الراوي ركز على رسم صورة جميلة للشعبي، ونسي من سواه حتى الخليفة نفسه، فالشعبي كان قريباً عند الحاجة إليه، وكان مستعدّاً لطمأنة الخليفة بعد أن ضاق صدره برؤية علامات الموت. وكان الشعبي عند حسن الظن به في استدعاء الأشعار الملائمة للموقف، أو إنشائها، كي تساير هذا الظرف الدقيق. هذا هو الشعبي وبضاعته كلها في خدمة الخليفة، الذي كان في الحقيقة يحتضر وقد مات قبل أن يتخطى الشعبي آخر عتبة في قصر الخليفة. والناعية كانت تهيئ

نفسها للنواح والعويل.

وإذا لم يذكر "غرس النعمة" جائزة الشعبي على هذا الدرس الخصوصي، فإن صاحب الأغاني لم ينسها. وخلافاً لما اعتاد عليه الخلفاء من تحويل صاحب الجائزة على حافظ مال الخليفة، فإن الشعبي لم يخرج من القصر حتى تسلم حقه حتى لا يلحق وجه القصة كلف بعدم إعطاء الأجير أجره قبل أن يجف عرقه.

وبعد:

أليست القصص التي نقرؤها اليوم، من خيال هذا الزمن، وهي مؤلفة، ونحن نعرف هذا، ومع ذلك نشتري الكتب التي سجلت فيها هذه القصص، ونحرص على اقتنائها، ونتمتع بما فيها، ونتعظ بالعظة فيها، ونعتبر بما فيها من عبر.

والفـــرق بين تلك وهذه أن تلـــك تدعي ما لا نصدقه، أما هذه فنصدق ما تدعيه؛ لأن هذا جاء عن قبول منا لهدف كاتبيها.

وفي التراث كثير من هذا المنحول، ولكن فيه كثيراً من المتعة، وكثـــيراً من الصور المتقنة التي تمثل تلك العصـــور خير تمثيل، وللقصص فضل كبير، فهي ركزت الصور؛ ليسهل علينا العيش خيالاً في ذلك الزمن.

إنها النفس وليس الحال[1]

النفس تحكم الإنسان، وليس الحال أو الظرف، فالنفس في الداخل، والحال والظرف والوقائع في الخارج، ولهذا نجد أن النفس - بأمر الله - تجعل الإنسان كريماً جواداً أو بخيلاً ممسكاً.

فإذا استقصيت أحوال من تعرفهم تجد فقيراً استغنى بعد فقر، ووُجْد بعد عدم، فصال يعطي بكرم وسخاء، حتى كأن بينه وبين الغِنَى ثأراً، وبينه وبين المال عداء، وتجده لا يستحي أن يذكر في المجالس زمن فقره وإدْقَاعه، ولا يحاول

---

(١) نشرت في المجلة العربية، العدد ٣٥٩ ذو القعدة ١٤٢٧هـ/يناير ٢٠٠٧م.

أن يدّعي لمن لا يعرفه، في حال فقره، أنه ولد غنيّاً وفي فمه ملعقة من ذهب، ولا يخجل أن يأتي بدقائق الوصف عن زمن الفقر الذي مرّ به، ولا بالعوز الذي عانى منه في حياته، حتى كان يبيت والجوع رفيقه، والشتاء يجلب عليه بخيله ورجله، وتجده يفاخر بأنه كان في هذه المرحلة القاتمة، ثم تداركه الله – سبحانه وتعالى – فوفقه فيما أقدم عليه من تحرّف وعمل، وكأنه يريد أن يتبع كل الفقراء، وكل المحتاجين سبيله. وحاله تقول: لقد عانيت، ويجب ألا يعاني الآخرون.

ونجد فقيراً استغنى، وأخذ يكدس الأموال، وكأن الفقر في ساقته، وكأنه يستعد له بسلاح المال، وقد لا يهنأ بهذا المال. لتقديره الزائد له، وحبه المتنامي لجمعه. وتجده لا يذكر عن ماضيه،

وهو فقير، شـــيئاً. إنه يتفادى ذلك في حديثه، ويحاول أن يصد من يحاول أن يكشف عن المخبأ. ويجهد نفسه ليظن من لا يعرف عن ماضيه شيئاً إلا أنه كان غنيّاً منذ أن ولدته أمه.

ما الفرق بين هذين الرجلين، وقد مرا بطريق واحد، ومرحلـــة متماثلة، أولاً وآخراً، اتفقا في الحال التي كانا عليهـــا، واختلفا في الحال التي صارا إليها، إنها النفس، أحدهما نفســـه مضيئة، والآخر نفسه مظلمة، أحدهما نفسه زهرة فواحة، والآخر نفسه عوشزة، شوكها نفاذ جارح.

النفس المضيئة تنسى نفسها، وتفكر في غيرها، إنها لا تريد أن ترى أحداً من الناس يعاني، وهم إخوانها في الإنســـانية، وإن راحتها، وإن عانت، في راحتهم، وســـعادتها من ســـعادتهم. إن رؤية

الابتسامة على شفتي من كان محزوناً فأزالت حزنه أو معسراً فأزالت عنه إعساره، مردود لا يعدله خزن المال وجمعه، وبقدر ما تعطي، وبقدر ما تسرع في العطاء، وبقدر ما تجزل، يطفح وعاء السعادة في نفسك المضيئة، فيزيدها ذلك نوراً على نور. أنت كريم على خلق الله، وخالقهم أكرم منك، وأقدر، وجزاؤك، إذا كان عطاؤك لوجهه، يأتي دنيا وآخرة.

قف مع خالة حاتم طيء، وادخل في نفسها، وتعمق فيها، واعرف ما يجول فيها، وما هو العامل الذي جعلها تقابل الحالة التي مرت بها، وهي لم تخفِها، بل أبانت وأبانت، وأحسنت في الإبانة:

"قيل: كانت خالة حاتم طيء سخيّة، لا تترك

شـــيئاً إلا جادت به، فحظر عليها إخوتها، حتى ذاقت طعم الفقر والجوع، فظنوا أنها قد وجدت ألم الضيق، فأطلقوها، ودفعوا لها صرمة من الإبل (الصرمة من الإبل القطعة منها، ما بين عشرين إلى ثلاثين، أو ما بين ثلاثين إلى خمســـين)، فأتتها سائلة، فقالت:

دونك الصرمة، لقد عضّني الجوع، فلا أمنع بعده ســـائلاً أبداً". [المختار من نوادر الأخبار، لمحمد بن أحمد المقـــرّي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٦هــ/١٩٩٦م، ص ١٠].

لم تقـــل: لقد عرفت الجوع، أو مررت بما يمر بـــه الجائع أو إني مما رأيـــت أتصور حالك أيتها الســـائلة، لا بل قالت: عضّها الجوع، فالجوع وحـــش له أنياب ينهش المحتـــاج الفقير، وهي

أكـــرم من أن ترى إحدى بنات جنســـها تقطع بأنياب وتوطأ بمنســـم، بل جعلت نفسها فداء، ففتحت بهذا هي وابن اختها باباً ولج الفخر منه إلى جميـــع طيء. وأصبح يكفي أن يقال: "حاتم" حتى تغلف صفة الكرم هذا الاسم، وتعدى ذلك إلى اسم طيء.

وهناك قصة أخرى من الكتاب نفســـه، إن كانت صحيحة فهـــي تمثل نفوس أصحابها خير تمثيل، وإن كانت مؤلفة فهي تمثل ما يعرفه مؤلفها عن مجتمعه، ومدى تقديره للكرم، ومحبة مساعدة الناس، فالكـــرم في ذلك الزمن يغلب على كل الصفات الحميـــدة؛ لأن حال المجتمع، وحاجته إلى عطاء الموسر لمن هو في مجتمع، كانت الوسيلة البينة لإقامة صرح العدل الاجتماعي، ولا تزال

القصص تروى، وتنقل بمجرد حدوثها، وتتداول، وقد يزاد فيها ويعدل، ولا تزال تؤلف، إظهاراً لأهمية الكرم، وتذكيراً للغافل من القادرين:

"حدث الهيثم بن عدي، قال:

تراهن ثلاثة نفر من الأجواد، فقال بعضهم:

أجود الناس في عصرنا هذا قيس بن سعد بن علقمة.

وقال آخر:

أجـــود النـــاس في عصرنا هـــذا عبدالله بن جعفر.

وقال آخر: أجود الناس في عصرنا هذا عرابة الأوسي.

فتشـــاجروا في ذلـــك، فأكثـــروا، فقال لهم الناس:

يمضي كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله، حتى ننظر ما يعطيه، ونحكم على العيان.

فقام صاحب عبدالله بن جعفر، فصادفه وهو يجهز لبعض أسفاره على راحلته، فقال:

يا بن عم رسول الله ﷺ أنا ابن سبيل، منقطع، أريد رفدك؛ لأستعين به. وكان قد وضع رجله على ظهر الدابـــة، فأخرج رجله، وقال: خذها بما عليها. فأخذها، فإذا عليها مطارف خز وألفا دينار.

ومضى صاحب قيس بن سعد، فصادفه نائماً، فقرع الباب، فخرجت إليه جارية، فقالت:

ما حاجتك، فإنه نائم؟

قال: ابن سبيل منقطع، أتيت إليه يعينني على طريقي.

فقالت الجارية: حاجتك أهون عليّ من إيقاظه.

ثم أخرجت له صرة فيها ثلاث مئة دينار: وقالت له:

اِمض إلى معاطن الإبل، فاختر لك منها راحلة، فاركبها، وامضِ راشداً.

فمضى الرجل فأخذ المال والراحلة.

ولما استيقظ قيس من منامه أخبرته الجارية بالخبر، فأعتقها.

ومضى صاحب عرابة، فوجده قد عمي، وقد خرج من مترله يريد المسجد، وهو يمشي بين عبدين. فقال: ياعرابة، ابن سبيل منقطع يريد رفدك.

فقال: واسوأتاه! والله ما تركت الحقوق في بيت عرابة الدرهم الفرد، ولكن يا بن أخي، خذ

هذين العبدين.

فقال الرجل: ما كنت بالذي أقص جناحيك.

فقال: والله لا بد من ذلك، وإن لم تأخذهما فإنهما حُرّان، فنزع يديه من العبدين، ورجع إلى بيته، وهذا الجدار يلطمه، وهذا الجدار يصدمه، حتى أثر في وجهه.

فلما اجتمعوا حكموا لصاحب عرابة بالجود".

[المختار من نوادر الأخبار، ص: ١٥-١٦].

وعبدالله بن جعفر من الأشخاص المشهورين بالكرم والسماح، وقد يتساءل متسائل عن مصدر ماله، الذي يجود منه بمثل ما يجود به، مما

يتعدى الوصف، وفي القصة الآتية مصدر من تلك المصادر، ولمحة عن مآل ما يأتيه من مال، هذا إذا كانت القصة واقعة حقّاً؛ لأن الشك دائماً يقوم عندما تكون القصة بين أحد من آل البيت، وآخر من الأمويين أو العباسيين، وهذه هي القصة، وفيها صورة مضيئة لنفس عبدالله، وما تدعوه إليه من الجود:

"قدم عبدالله بن جعفر على يزيد بن معاوية، فقال له يزيد:

ما كان أمير المؤمنين يعطيك إذا قدمت عليه؟ (يعني أباه).

قال: كان - رحمه الله - يعطيني مئة ألف درهم.

قال: هي لك، ولقولك: "رحمه الله" مئة ألف

أخرى.

قال: بأبي أنت وأمي.

قال: ولهذه الكلمة مئة ألف ثالثة.

قال: أحسن الله إليك.

قال: ولهذه الدعوة مئة ألف.

قال: يكفي يا مولاي.

قال: ولهذه الكلمة مئة ألف.

قال: فحمل عبدالله المال، وانصرف.

فقيل ليزيد: أنفدت المال، وأجحفت الخزانة، دفعت لرجل واحد خمس مئة ألف درهم!

قال: ما دفعتها له وحده: وإنما دفعتها لسائر أهل المدينة؛ لأنه ما يملك درهماً إلا جاد به.

فلما رجع عبدالله إلى المدينة لم يترل عن ناقته حتى فرقها لمستحقيها. فعوتب في ذلك، فقال:

إن الله عودني عادة، وعـــودت خلقه عادة، عودني أن يمدني بالـــرزق، وعودت خلقه بالبرّ، فأكره أن أقطع العادة، فيقطع عني العادة.

[المختار من نوادر الأخيار: ص ١٤-١٥].

المهم هو تبجيل الكرم، وكشف أنوار النفس لدى أناس يتوقع منهم أن تكون نفوسهم مضيئة، وإلا فالقصة عرضة للنقد، فالعداء معروف بين الأمويين وآل البيـــت، ويزيد في ميزان الخليفة الأمـــوي أن يقصده أبرز آل البيت في زمنه، أو من أبرزهم. ويترحم على والده، ثم يفدي يزيد بأبيه وأمه، ثم يصفه بأنه مولاه. كل هذا زيادة في ميزان الأمويين، ونقص في كفة آل البيت.

ورغم أسلوب القصة، وإتقان سبكها، لم يتنبه القاص لهذا الجانب، أو لعله قصده، ولكن يبقى

أمر مهم له صلة وثيقة بهذا الموقف، ماذا سيأخذ عبدالله بن جعفر في سنة لاحقة؟ أمئة ألف درهم أو خمس مئة ألف درهم؟

ثم هل يحتاج يزيد أن يسأل عبدالله بن جعفر عما كان يتقاضاه أيام معاوية؟ ويزيد عنده السجل ومن السهل أن يعرف عنه قبل المقابلة.

وقد نبعد في الخيال، ونقول: إن القصة توقفت عند مرحلة العطاء، لتؤدي الهدف الذي أراده الكاتب الذي أراد تمجيد الدولة الأموية. ثم جاء فيما بعد كاتب يميل إلى آل البيت، فأكملها بما انتهت إليه، فعدل الكفة، فصار يزيد يعطي من بيت المال وعبدالله يعطي من ماله.

هذا مجرد ظن، والله وحده أعلم بالحقيقة، ويبقى لنا ما جئنا بالقصة ليشهد عليه، وهو

تمجيد الكرم، وأنه نفــح نفس مضيئة، وطرح شجرة مباركة، تنبت داخل الإنسان، تؤتي ثماراً، فيها من البهجة والإســعاد ما لا تصل إليه صفة أخرى إلا صفة من صفات النبل الأخرى.

إشارة القلب للعين[1]

أقيس رقة القلب بدمعـــة العين، وأجد هذه الدمعة صادقـــة في التعبير عما يكمن في الفؤاد، وكأن بين القلب والعين إشارة، فإذا أخذ القلب حقه من استيعاب أمر، وأحاط بجوانبه، ووضع له مكاناً رحباً في داخله، ألمح لشركائه في العاطفة بأن يدلوا بدلوهم، ويبدوا ما خفي من وسائلهم التي تدل على انفعالهم، وأداة العين الدمعة، وأداة الشفاه الابتسامة، وأداة الوجه انبساط الأديم، هذا كله في حالات الرضى والفرح.

---

(١) نشـــرت في المجلة العربية، في العـــدد ٣٥٨ في ذي القعدة ١٤٢٧هـــ الموافق ديسمبر ٢٠٠٦م.

وهناك من الرابط بين القلب عنده وبين العين قوي، يتقبل الإشارة السريعة، فتنهال الدموع بسرعة، وتنسكب بفيض مدرار، يعضد هذا أحياناً نهيج خافت، وتكسر عبرات، وهذا يدل على أن الروح الإنسانية متأصلة في نفس صاحبها، وتغلغل في جنانه، ومع الوقت تحفر أخاديد تسرع بالانفعال دون أن تحتاج إلى استنهاض، وليست فرحة الأم، إذا ما اغرورقت الدمعة في محاجر عينيها، وهي ترى طفلها أو طفلتها تبدأ الجلوس، أو الحبو، أو الوقوف أو المشي، أو الإتيان بشيء طريف، إلا من هذه العاطفة الجارفة، لتؤكد أن الإنسان السوي يدرك العمل الجميل، ويقدره، ويرى فيه ما يستحق أن يلتذ به، ويخزن في عمق الروح.

وإذا كان الفرح يوجب المرح، ويستدعي الابتسام، ويجلب البهجة، فمن الغريب أن يأتي التعبير عنه بالدموع، وهي نضح الحزن والكآبة، وكأن المرء يقول: إني استنفدت كل هاته الوسائل في داخلي واستعرت مظهر الحزن لأقصى شعور الفرحة.

وهناك خلاف هذا المظهر الإنساني، مظهر ذي القلب الصخر، والفؤاد الحجر، من لا يوجد بين قلبه وعينه صلة؛ لأن نبض القلب العاطفي من الضعف، بحيث لا تخرج منه إشارة إلى ما هو أقرب من العين.

قرأت قصة رأيت فيها امتحاناً للقلوب، فمن لم يَجْرِ دمعه على خده، وهو يقرؤها، فهو من النوع الثاني الصخري الحجري، ومن جرى

دمعه، وهو يقرؤها، فحظه من رقة الطبع، وقوة نبـــل العاطفة بقدر ما يذرف من دمع، وبقدر ما تتناغم العين عنده مع القلب.

وهذه هي القصة:

"حدّث أبو موسى الفضل عن أبيه قال:

سمعت زينب بنت سليمان بن علي بن عبدالله ابن عباس، قالت:

كنت عند الخيزران، جارية المهدي، وعادها، إذا كنت عندها، تجلـــس في عتبة باب الرواق، مقابل الإيوان، وأجلس أنا بإزائها في الصدر، في مجلس كان "المهدي" يجلس فيه، وهو يقصدنا في كل وقت، يجلس عندنا في بعض الأوقات ساعة، ثم ينهض، فبينمـــا نحن كذلك، إذ دخلت علينا جارية من جواري الخيـــزران، اللاتي يحجبنها.

فقالت:

أعزّ الله السيدة، إن بالباب امرأةً، ذات حسن وجمال، وخلقة حسنة، وهي على غاية من سوء الحال، تستأذن عليك، فسألتها عن اسمها، فامتنعت عن ذلك.

قالت زينب: فأشرت الخيزران إليّ، وقالت: ما ترين؟

فقلت: ما يضر من دخولها شيء، فلا بد من فائدة أو ثواب.

فدخلت امرأة أجمل ما يكون من النساء، وأكملهن. فوقفت إلى جانب الباب، وسلّمت.

وقالت: أنا "مُرَيّة" بنت مروان بن محمد الأموي.

قالت زينب: وكنت متكئة، فقمت جالسة.

فقلـــت: مرية، قاتلـــك الله! ولا حياك، ولا رعاك، ولا ســـلّم عليك! والحمدلله الذي أزال النعمة عنك، وهتك سترك، وأهانك بين الناس. أتذكريـــن، يا عدوة الله، حين أتاك نســـاء بني العباس يســـألنك أن تكلمـــي أباك في الإذن في دفن إبراهيم بن محمد، فوثبتِ عليهن، وأسمعتهن أخشـــن الكلام، وأغلظ القَول، وخرجن على الحالة التي علمتها؟

قالت زينـــب: فلما سمعت كلامي ضحكت، فوالله ما أنســـى حســـن ثغرهـــا، وعلوّ صوتها بالقهقهة.

ثم قالت: أي بُنيّة عمي، أي شـــيء أعجبك من حسن صنع الله بي حتى أردت أن تسيئي بي؟ والله لقد فعلت بنساء أهلك ما ذكرت، ولكن

كان حقّاً على الله أن يسلمني إليك ذليلة جائعة، عريانة، شعثة، خاضعة، فكان هذا جزاءً لشكرك لله تعالى على ما أولاك.

ثم قالت: سلام عليكنّ، وولت خارجة.

قالت زينب: فالتفت إلى الخيزران، فإذا هي تبكي.

ونادت الخيزران: يا مرية، دخلت بإذني، فلا تخرجي إلا بإذني، وصاحت بحجابها: ردوها، فرجعت.

وقالت: والله ما ساقني إليك إلا الضرورة، والجهد، وسوء الحال.

قالت: فنهضت الخيزران، فعانقتها.

قالت: ما فيّ لذلك موضع، للحال التي أنا عليها.

قالـــت الخيزران لجواريهـــا: عليكن بالحمام بسرعة.

فعبروا بهـــا إلى الحمام من وقتهـــا، وأمرهنّ بخدمتها، ثم وافتها الخلع المذهّبة، والطيب.

ثم قامت إليها الخيزران، وأعتنقتها، وأجلستها المجلس الذي يجلس فيـــه أمير المؤمنين المهدي، وقدمت إليها الموائد الفاخـــرة، وجعلت تأكل وتلقمها، حتى اكتفت، وغسلت يديها.

فقالت لها الخيزران: هل عندك أحد ينتظرك؟

فقالت: ما لي أحد.

فقالت الخيزران: قومي إلى إحدى مقاصيري، فاختاري أحسنها، واسكني بها عندي، ولا تفترقي حتى الممات.

فقامت إلى المقصورات، وأقامت بأحســـنها،

وحول إليها جميع ما تحتاج إليه من الفرش، والقماش، والآنية، والخدم، ثم تركتها، وخرجن من عندها.

فقالت الخيزران: هذه امرأة قد مسّها من الضر ما لا مزيد عليه، ولا يغسل صدأ قلبها إلا المال. احملوا إليها خمس مئة ألف درهم، فحملت إليها لوقتها.

ودخل المهدي عقيب ذلك، فقال: ما بالكنّ؟

فقامت إليه زينب، وأعلمته بجميع ما وقع، وما قالت لها حين دخلت عليها.

فغضب المهدي غضباً شديداً، وقال:

ما هذا سجودك لله على ما أنعم عليك. والله لولا لك عليّ حرمة لأحلفنّ إني ما أكلمك أبداً.

قالــت: يا أمــير المؤمنين، قد طــاب قلبها، واعتــذرتُ إليها، وفعلت معهـــا الخيزران كذا وكذا.

فسرّه ذلك، وقال:

احملوا إليها من عندي مئة ألف درهم، وقال لخادم كان على رأسه:

بلّغها مني السلام، وقل لها:

إني ما ســـررت بشيء منذ عمري كسروري اليوم بمقامك عندنا، فلا تدعي في نفسك حاجة إلا ذكرتها لنا، ولولا أُكبر أن أحشـــمك لسرت إليك مسلماً عليك، وقاضياً لحقك.

فمضى الخدم بالرســـالة إليهـــا، فجاءت إلى المهدي، وسلمت عليه، وقالت:

ما علي من أمير المؤنين من حشمة، وإني صرت

من بعض جواريه.

فقال: لا، والله، بل أعزّ عندي من ولدي.

ولم تزل عند الخيزران حتى ماتت".

[المختار من نوادر الأخبـــار لمحمد بن أحمد المقرّي، ص: ٤٥].

وإذا كان في الحياة كثير من الأمور التي يشترك فيها القلب مع العين، وفي التراث مثلها، فإن ما في الحياة قد يكون أكثر حدوثاً، وأقرب أن يكون محكّاً لمثل هذه المشـــاركة، لاشتراك الأعضاء في المساهمة في أن تؤدي العين ما عليها من التجاوب مع القلب، يزاد على هذا ما قد يصحب ذلك من أصوات وطقس، وإضاءة أو ظلام، ولهذا فبدلاً من ضرب الأمثال عنها، والشعور بها، وملامستها للقلـــب، جاء المثل من التراث؛ لأن الحادثة فيه،

في مرجعها ومصدرها، لا يُفطن إليها، فحسُـــن إبرازها، والتنبيه عليها؛ ولهذا لن أكتفي بالقصة الســابقة، ولكني أشير إلى ما كان من التجاوب بين القلب والدمع، فيما قرأته حديثاً من مواقف لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما أورده عنه الأســتاذ الكبير عباس محمود العقاد، في كتابه عبقرية عمر، ففيما أورده لغة واضحة للقلب ومخاطبة للدمع، فيستجيب!

في فمي ماء[1]

يتهم المرء أحياناً، وهو بريء، بخطأ لم يختره، وأمر منتقد لم يكن له يد فيه، فلا يستطيع دفع اللوم عن نفسه، أو إبعاد التهمة التي اتهم بها، لا عجزاً منه، ولا إقراراً منه بها وبحدوثها، ولكن خوفاً من إظهار الحقيقة الخافية على الناس، وتبيان ما حجب عنهم؛ لأن في إظهار ذلك أذى عليه أكبر من السكوت على التهمة الظالمة، ولهذا يفضل السكوت، ويتحملُ التهمة، وأذاها، ويتجرعُ غصة القهر، ونظر الناس إليه شزراً.

---

(١) نشرت في المجلة العربية العدد: ٣٥٧ السنة ٣١ في شوال ١٤٢٧هـ الموافق: نوفمبر ٢٠٠٦م.

يســـكت على مضض، ويستسلم وفي حلقه غصة، وفي صدره جمـــرة، ولا ينفس عنه إلا أن يقول لمن استفسر منه عن الحقيقة: في فمي ماء.

ومعروف أن من في فمه ماء لا يســـتطيع أن يتكلم؛ لأنـــه إذا فتح فمـــه رش الماء على من حوله، وهذا ســـوف يجلب السخرية، ويعرض للاستهزاء.

وقد يكون المتكلم فقيهاً في الدين، فيلجأ إلى التعبير بما ورد في القرآن عما يصدق على هذه الحالة، فيقرأ مستحضراً الآية الكريمة:

﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى ﴾ [الشعراء ١٣].

وقـــد لا يكون من وقع في مثـــل هذا المأزق عارفاً بالقـــرآن، متضلعاً فيه، ولكن لديه علماً

بعلوم العربية، وأقوال العرب، فيجد متنفّسه في قولهم:

"رُبّ سامع بجرمي لم يسمع بعذري".

وقد يظن بعض المتمثلين بجملة: "في فمي ماء" أن هذا تعبير حديث جاء مجلبباً في دثار من لون حديث، خاصة وأنه تعبير دارج على ألسنة الناس، حتى العامة منهم، ولكنه في الحقيقة قديم، قدم عبدالملك الثعالبي، المتوفى عام ٤٣٠هـ، فقد أورده في كتابه:

"خاص الخاص"[١]، قال:

"فيمن لا يمكنه الكلام والحق معه: رُبّ سامع بجُرمي لم يسمع بعذري.

---

(١) ص ٥١ تحقيق مأمون محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

قال الشاعر:

قالـــت الضفـــدع قـــولاً
فهمتـــــــه الحكمـــــــاء

في فمـــي مـــاء وهـــل ينــــــ
طـــق مـــن في فيـــه مـــاء"

وكم مثل من أمثال ذلك مما نردده، ولا ندري من قائله، وفي أي زمن قيل، وما مناســبة قوله، ولكنّ قوته في الدلالة الــتي يحملها معناه، وفي صدقه في التعبير، وهما اللذان أبقياه حيّاً، وقريباً مـــن تناول الناس. وعندما يكون التعبير بالجملة القصيرة يكون عادة أبلغ من الشرح والتطويل، وأسهل للحفظ، وأقرب للتناول، ويأخذ طريقه إلى الناس، وينال رضاهم.

لذة العطاء[1]

للعطـــاء لذة لا يعرفها إلا مـــن جعل الله في طبعه حب العطاء، ومن منّ عليه بفضيلة الكرم، وقد عُرف في التاريخ رجال برزوا في سجلاته، وضرب بهم المثل في العطاء الجزل، وأُلِّفت عنهم كتب، وأُشـــيد بأفعالهم، وبمـــا أقدموا عليه من عطاء من سأل، فقضوا حاجته، وفكوا عسرته، وتســـببوا في أن يرسموا على شفتيه بسمة أزالت كدر الحزن والفاقة. وما أقدموا عليه من تلمس حاجة المحتاجين الذين لا يسألون الناس إلحافا،

(١) نشـــرت في المجلة العربية، العدد: ٣٥٣ جمـــادى الآخرة ١٤٢٧هـــ الموافق يوليه ٢٠٠٦م السنة: ٣١.

من قريب، أو جـــار، أو محتاج دل مظهره على الحاجة.

والكـــرم لا يقتصر على عطاء المال، أو مديدٍ بالأكل، أو الإسكان، ولكنه يتعدى إلى الجهد، الذي يكون أحياناً أغلـــى ثمناً عند الله، وأكثر ثواباً: مثل خدمة المريض تطوعاً، أو رعاية المسن تبرعاً، أو المعوق شـــفقة ورحمة، أو اليتيم حنوّاً وعطفاً، أو الأيّم سنداً وعوناً.

هـــذه الإضاءات في المجتمع مقدرة، ومنظور إليهـــا أنها مـــن العُمُد التي يقـــوم عليها صرح المجتمع، وبقـــدر تواجدها، وإتقان العمل فيها، وما تأتي بـــه من نتائج، تكون المفاخرة من محيط هؤلاء الأبرار الذين يبذلون جهدهم، ويرخصون راحتهم، من أجل من يستفيد منهم، وما يقومون

به، احتساباً لثواب الله، وما يأتي من مردود من عملهم المخلص.

كل هــذه المظاهــر معروفة، يراهــا الناس ويقدروها ولكن ليس مــن بينهم من يعرف ما يدور في نفس المعطي مــالاً أو جهداً، الناس لا يعرفون الوقود الذي يسيّر هؤلاء الأفذاذ، ما هو الدافع الذي "يمون" هؤلاء، فلا تكسل همتهم، ولا يضعف عزمهم، بل يزيد ويزيد ويزيد، هذا الجاحظ يفتح لنا نافذة نطل منها على نفس منيرة، ترينا ما لم نعرفه من الأفعال، تكشــف لنا سرّاً، وهو اللذة التي يجدها المعطي:

"قال أبو عثمان الجاحظ:

سمعت إبراهيم بن السندي بن شاهك يقول: قلت في ولايتي الكوفة لرجل قد تناهى، وكان

لا يجف لبده، ولا يستريح قلبه، ولا تسكن حركته في إغاثة الملهوفين، وإدخال المرافق على المحتاجين: ما الذي هون عليك كل هذا النصب، وأعانك على كل هذا التعب؟

فقال: سمعت تغريد الأطيار بالأسحار على الأشجار، وتجاوب الأوتار والمزمار، فلم أسمع أطيب من ثناء حسن على محسن.

قلت له: أحسنت والله، فقد حُشيت كرماً"(١).

أجل هذا هو المردود الذي لا يمله من يتطلع إليه، بل يبقى يحرص على الوصول إليه، ويعض عليه بالنواجذ.

---

(١) خاص الخاص، للثعالبي، (ص ٦٢) الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية - بيروت.

مواعظ الأصمعي

الأصمعي رجل فكر وأدب، واسع الاطلاع، عبية تجارب، روت عنه كتب الأدب كثيراً، وما روته جاء منوّعاً يسير علِى جواد مختلفة، ويأخذ مناحي متباينة. يأتي بالحِكَم في غلاف من قصص، ويأتي بالمواعظ وكأنها ليست مواعظ، وإنما قصص توهم أن القصد فيها المتعة، والظرافة والطرافة.

رغم أن الأصمعي ابن الحاضرة إلا أن كثيراً مما يأتي بـــه كان عن البادية، ومن البادية، ولعل هذا يساعده على "بيع" بضاعته دون أن يتعرض لتأنيب أو محاسبة، فأهل المدن معروفون، وقد لا يذكر اسماً ولكن الوصف قد يشي بمن قصد، أو

ينطبق على أحد دون قصد من الأصمعي، فيقع المحذور، أما عن البادية فالمجال واسع، والأمان من العتاب مضمون، والاعتراض مستبعد.

وأهل المدن يحبون سماع أخبار البادية، وينجذبون إلى ما يأتي منها من طرائف، وما يروى عنها من أخبار غريبة، وأفعال عجيبة، وتصرفات غير متوقعة. واختيار الحادثة، وملاءمتها للأذواق، وحسن سبكها، وإتقان تصويرها، يبعد الناس عما قد يكون فيها من وضع قصد من ورائه التأثير، نصحاً، أو توجيهاً، أو تحذيراً، أو ترغيباً، أو حثّاً، أو تخويفاً، وطرافة الخبر، وما فيه من لذة يدهش القارئ أو السامع، فلا يبادل بلذته شكّاً يخرجه عن هذا المحيط البهيج.

هنا نص فيه جاذبية أوجبها حسن الحوار،

وحسن تدرجه، وقُنِّعت الموعظة خير قناع، وأثّرت خير تأثير، ومع هذا ففي النص شيء من روح الأصمعي وطريقته في النحل، يدل عليه الهدوء النبيل الذي رمى إليه، والموعظة المؤثرة التي انطوى عليها الحوار. وقد يكون الموحي بالنحل الأبيات التي يستبعد أن تكون جاءت على لسان الفتاة بداهة، في موقف عابر. وكالمعتاد من الأصمعي علق روايته على رجل مجهول من رجال البادية، وأقام أحد أعمدته الثابتة التي تأتي متماثلة بين روايته للحوادث. ويبقى مظهر النحل في جوانب القصة الأخرى واضحاً. ولا بد للأصمعي، ووسيلته هذه المرة الغزل، أن يجعل الحوار بين فتى وفتاة؛ لأنه لا يستطيع أن يعلقه على نفسه وهو بهذه السن، وما يتصف به من

عدم الوجاهـــة التي تجذب الفتيات. ويُحمد من الأصمعي أنه أجـــاد في تغليف موعظته في ثوب قشيب، وألبسها لباساً ملائماً لمثل هذا الغرض النبيل، ولم يعدم أن يلتفت لتسلسل الحوار، فيأتي منه منطق، وسهولة فهم، وقد وردت القصة في كتاب الوَشّاء: "الظّرف والظرفاء":

"أخبرني أحمد بن عبيد قال:

أخـــبرني الأصمعي عن رجل من العرب قال: خرجت في بعض ليالي الظُّلَم، فإذا أنا بجارية كأنها صنم، فراودتها عن نفسها، فقالت:

يا هذا، أما لك زاجـــر من عقل، إذا لم يكن واعظ من دين؟

قلت: والله ما يرانا إلا الكواكب.

قالت: يا هذا، فأين مكوكبها؟

فقلت: إنما كنت أمزح.

فقالت:

فإيـــاك إيـــاك المـــزاحَ فإنّـــه
يُجَرِّي عليك الطفلَ والدَّنِسَ النّذلا
ويُذهِب ماء الوجه بعد وضائه
ويُورِث بعد العـــزّ صاحبَه ذلاّ

بقي نقطة ضعف لم يتنبه لها الأصمعي وهي إما أن تكون الليلة مظلمة، وظلامها لا يسمح برؤية امرأة فائقة الجمـــال كالتمثال، أو أن الكواكب قد بـــدّدت الديجور فتمكن الفتى من رؤيتها، ولم يعد وصـــف الليلة أنها من "بعـــض ليالي الظلم" مقبولاً[1].

---

(١) الظرف والظرفاء لمحمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء (٥٢).

العقل المنجد

مرامي عقل الإنسان ليس لها حدود، أعطى الله بعض الناس من سعة العقل، وبعد غوره، ما لا يمكن لأحد أن يتصور نهاية مقدرته؛ ونشاط العقل له شعب كذلك لا تحد، فقد يبرز شخص في شعبة من شعبه، وقد يقصِّر في شعبة أخرى. وقد يكون في هذا للاستعداد الفطري دور كبير أو صغير، وقد يكون للسعي في تنمية بذرة العقل ما يكمل الفطرة. والمران قد يأتي بما يدهش، وإذا كانت الجوارح تفعل ذلك فالعقل، وهو مصدر مقدرتها، والإدهاش منها، أولى أن يكون له النصيب الأوفى؛ فمحامٍ يأتي بالعجائب في المرافعات، ويدهش

بكسب القضايا، قد لا يفلح، البتّة، في التجارة، أو في أن يصبح رجل أعمـــال، يتقن المضاربات التجارية، ويشم رائحة الكسب من بعيد.

والعقـــل قد يبقى أحياناً في راحة، لا يأتي منه عمل يلفت النظـــر، إلا عندما يُحتاج إلى إيقاظ وعمـــل، وحينئذ يأخذ المســـارب الموصلة إلى الهدف، بدهشـــة وإعجاب؛ وهو في هذا البيات لا يعتبر في حالة كسل، ولكنه في حالة استرخاء، واستعداد للوثب، عندما يأتي الموجب لذلك.

واســـتدعاء إيقاظه له جوانب متنوعة، فقد يحركـــه طمع، يوجب أن تشـــحذ له الطاقة، لما فيه من إغراء الكسب؛ وقد يحركه دفع ضائقة، جـــاءت بالتدريج تجمعت ســـحبها مع الوقت؛ أو جيء إليه بالعســـرة فجأة؛ ولكل ذكي عاقل

في مقابلة الشدة أسلوبه، وطريقة إيقاظ فكره، والإسراع في انقضاضه، فما يسلكه ذكي قد يختلف عما يسلكه ذكي آخر، والمنهج الذي يختاره عاقل قد يختلف عما يختاره غيره.

وأبرز ما يشحذ العقل، ويستدعي طاقته، ويشرك معه أكثر الحواس، هو الخطر المحدق بالعاقل؛ لأن الدافع جاء من خارج النفس، والتصرف في يد غير يد المتعرض للأذى؛ فلا بد حينئذ من جمع الجيوش بكل أنواعها وسلاحها، لتحصين الموقع، والدفاع عنه، والاستعداد بعد ذلك للهجوم، وختل الخصم، ومفاجأته بما لم يتوقع، حتى يكون النصر كاسحاً، والنتيجة دافعة، فلا يقوم للخصم بعدها قائمة، ويطمئن المدافع المهاجم إلى أن الخطر اجتث من جذوره.

وما قيل هنا، أو بعضه، تمثله القصة الآتية من التراث:

يقول صاحب "تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون"، خليل بن أيبك الصفدي:

"ومــن عجيب الدهاء أن قوماً قدموا خصماً لهم، فقالوا:

لنا عليه مال.

فقال: صدقوا، أيها الحاكم، سألتهم المهلة إلى أن أبيع ما لي من عقار، ورقيق، وإبل، وشاء.

فقالوا: كذب - أعــزك الله - وإنما يداهينا بذلك.

فقال: أيها الحاكم، قد شهدوا لي بالإعسار.

فخلى الحاكم سبيله".

[تمام المتون صفحة ٣٨٦].

العداوة أنواع وفنون

العداوة شـــعور يطغى على الإنسان تجاه أحد مــا، وهي ثابتة بين بعض فئـــات الناس، نتيجة التنافس أحياناً، والحسد أحياناً أخرى، ونتيجة الغيرة، والعقد النفســـية، وتجد أشد العداوات بين المتزامنين من أصحاب المهن المختلفة، الدانية منها والعالية، بل إن العالية أحياناً تكون أشدها رياحـــاً، وأكثرها ضرراً، والعلمـــاء هم أعلى طبقـــات المجتمع عقلاً، ومع هـــذا يظهر بينهم عداوات حادة، يشمئز منها أقل الناس مقاماً في المجتمع.

والمجتمعات يكون أحيانـــاً بينها عداوات،

فالقبائل يعادي بعضها بعضاً، إلى درجة نشوب الحروب بينها على أقل الأسباب، هذا في البادية، وفي الحاضرة ما هو أشـــد وأنكى؛ مدن يُعادي بعضها بعضاً، وقد لا يصل الأمر إلى حد القتال، ولكنه يبقى في نطاق الكلام، وقذائفه أحياناً أكثر إيلاماً من وقع الحسام، وجرح السهام.

وقد يكـــون وراء حرب المدن الكلامية، وما يؤلف من إشاعات كاذبة على مدينة من سكان مدينة أخرى، أســـباب قديمة في تاريخها، قد لا يعرف الحاضر مبتداها في الماضي، ولكنه ورث العداوة من آبائه وأجداده، ووصل إليه ما بَرَوا من سهام الإشاعات القاتلة، فزاد عليها ما يتلاءم مع زمنه، وكأنه يخشى على نار العداء أن يخمد أوراها، وسيوف الأذى أن تغمد في جرابها.

وقد تكون الحرب نتيجة أمر سياسـي، ترك الماضي ندوبـه عميقة، مرارة طعمها لا تزال في فم أصحاب المدينة الدنيا علقماً، ينغص عليهم مذاق الحياة، ولا يخفف عنهم وقعه إلا الإشاعات الكاذبة. وقد تكون المدينة صاحبة اليد العليا هي التي تلهب النار، وتزيد اشـتعال الحطب، لمتعة ذاقـت طعمها، في القـديم، ولا تريد أن تفقده اليوم.

وقد تكون المنافسة تجارة تشعر إحدى المدينتين أن كسـادها جاء من تلك المدينة، والجرح في التجارة، والاقتصاد، جـرح صعب الاندمال؛ لأنه يلمس المعيشـة، والمعيشة قوام الحياة. ولا يفرج هموم الصدر إلا الإشاعات يفرخ بيضها، ويحلق نسرها، وتطير في الأفق مجلجلة رعودها،

ومزمجرة رياحها.

وقد تكون المدينة اجتذبت العلماء، فأخلت حلقات العلم في المدينة الأخرى، فانطفأت فيها أنوار كانت مضيئة، وحـــل فيها ظلام الجهل، وانتقل الإشـــعاع إلى المدينة الضرة، وحق لهذه أن تســـخط، وأن ترعد وتبرق، وتغلي وتزبد، وترسل الإشاعات المحكمة، والتهم المتقنة، وأن تحرص على بثها، وإشـــاعتها، وتثبيتها في أذهان الناس، بصور مختلفة؛ حتى لا يشـــك في صحتها شاكّ، ويَتيقن من يسمعها أن ما يقال حقيقة، هي من طبيعة الموصوف.

والناس سريعون إلى قبول ما فيه تلاحم وعراك، وما فيه سب وشتم، وهي طبيعة في الإنسان، لا يقضي عليها إلا التقويم والتهذيب، والأديان من

عوامل التقويم الرئيسة في الأزمان كلها. نرى اليوم أن المقالة الهادئة، الملأى بالحكم، والآراء السديدة، لا تقرأ، وإذا قرئت فبملل، أما المقالة الملأى بالانتقاد والغمز واللمز، فيقبل عليها القراء بنهم، خاصة إذا تتالى الأخذ والرد بين اثنين على أمر طبيعته ساخنة، وفيه من تقطيع الأطراف ما فيه.

ومن الأمثلة على عداوات المدن ما تتهم به حمص من المدن المجاورة لها، والمنافسة، من أن أهلها يتصفون بالغباء المتناهي، ويبرهنون على هذا بوضع قصص مختلفة، تجذب بطرافتها القراء، وتغري بالرواية والنشر، وهي أبعد ما تكون عن الصحة، ويمكن أن تركب على أي بلد ظلماً وعدواناً، والقصة الملفقة الطريفة تجري هكذا:

"وفد على الرشـــيد ثلاثة من حمص، فدخل أحدهم فرأى غلاماً على رأســـه، فظنه جارية، فقال:

السلام عليك، يا أبا الجارية.

فصُفع وأخرج، فدخل الثاني، فقال:

السلام عليك يا أبا الغلام.

فصُفِع، وأُخرج؛ فدخل الثالث، فقال:

السلام عليك، يا أمير المؤمنين.

فقال له:

كيف صحبت هذين الأحمقين؟

قال:

يا أمير المؤمنـــين، لا تتعجب منهم، فإنهما لما رأياك بهذا الزي، ورأيا لحيتك طويلة، قدّرا أنك أبو فلان.

فقال الرشيد:

أخرجوه، قبح الله بلدة هؤلاء خيارها".

[كتاب الحمقــى والمغفلين لابن الجوزي ص ١٧٧].

إذاً التقبيــح، والدعاء به انصب على حمص، وزيادة في النكايــة، وإمعاناً في الزراة، أكد أن هــؤلاء خيارها!! ومن أراد معرفة المزيد في هذا الباب عن أهل حمص، فليقرأ الصفحات السابقة واللاحقة من الكتاب.

حدة أنياب الطمع

الطمع خلق ذميم، وطبع سقيم، وخصلة مرذولة، لم يعهد فيه محمدة، ولا عرف منه مجلبة خير، ولا دفع ضير، يترل قدر المتصف به، ويوهن عضد المتسلح بسلاحه، إذا تمكن من إنسان أنشب مخالبه في مقاتله، وإذا تفرد بإنسان حجب عنه أشعة شمس النفع، خطره أنه إذا وَجَد في المرء ميلاً له، أو رأى مدخل ضعف إلى نفسه، هجم هجوماً كاسحاً، وكأنه "خدّر" أحاسيس ضحيته، فلم يعِ إلا المكاسب الوهمية للطمع، والقصة الآتية تمثل هذا أصدق تمثيل، وتعطي صورة لتدرج الطمع حتى أسكر صاحبه، فأضاع

عليه أكثـــر مما كســـبه في أول الأمر، وجاءت صاحبه لطمة قوية، أيقظت حواسه "المخدرة"، والسكرى بالأمل الخادع:

"حدثني الزبير [ابن بكار] قال: حدثني عمي مصعب بن عبدالله قال:

لقي الفضل بن الربيع طاهر بن الحسين، فثنى عنانه معه، فقال له الفضل:

يا أبا الطيب، ما ثنيت عناني مع أحد قط إلا مع خليفة، ولي حاجة.

قال: وما هي؟

قـــال: تُكَلِّم أمير المؤمنـــين في الرضى عني، وتعجل ذلك.

فمضى أبو الطيب من فوره ذاك، فكلم أمير المؤمنـــين فيه، فأمره بإدخال الفضل عليه، وقال

أبو الطيب:

أدخلت الفضل على المأمون حاسراً لا سيف عليه ولا طيلسان، ولا قلنسوة.

فلما رآه المأمون وثب على فرشـــه، فصلى ركعتـــين، ثم التفت إليه قبل أن يســـلم عليه، فقال:

أتدري لِمَ صليت يا فضل؟

قال: لا، يا أمير المؤمنين.

قال: شكراً لله، إذ رزقني العفو عنك.

قد كلمـــني أبو الطيب فيـــك، وقد عفوت عنك.

فقال الفضل: لي حاجة يا أمير المؤمنين.

قال: وما هي؟

قال: تجعل لي مرتبة في الدار.

قال: عجلتَ يا فضل. اخرج.

فخرج[١].

(١) (الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ص: (٦٠).

درر من القول

يســـتفيد العاقل من التجــارب التي تمر به في حياته، ويســـتفيد المفكر من القول الحكيم الذي يسمعه، ويتدبر هؤلاء هذه الأمور، ويديرونها في أذهانهم، فإذا تجمعت أرسلوها منظومة في سلك متين، لتبقى نبراساً يستفاد منه، في مناسبته، ويرويه الحاضر ليكون ذخيرة تُهدى للأجيال القادمة.

ويبقى نور هذه الحكم، وضياء تلك النصائح، يُصقل مع مرور الزمن، وتخالف الأيام، فلا يخبو لهـــا أوار، ولا ينخدش لها أديم، وكل من قرأ ما كتب من ذلك يستدعي الترحم على قائل هذه الدرر، سواء كان قائلها السيد محمد بن علي بن

الحسين، أو أنها قيلت من أديب رأى في نسبتها إليه ما ســـوف يتيح لها القبول، لقبول صاحبها عند الناس، واحترامهم له، ولما يقول، وهذه هي الدرر التي تتزاحم في طريق الصدق، وتتســـابق في التوافق مع الحقيقة، وتستكن في الواقع، ولا يتناطح فيها عتران:

"وصّى محمد بن علي بن الحسين بعضَ أصحابه، وهو يريد سفراً، فقال:

لا تسيرنّ ســـيراً وأنت حاقن، ولا تترلنّ عن دابّة ليلاً لقضاء حاجة إلا ورجلك في خفّ، ولا تبولنّ في نفق، ولا تذوقنّ بقلة، ولا تشمّها حتى تعلم ما هي، ولا تشـــرب من ســـقاء حتى تعلم ما فيه، واحـــذر من تعرف، ولا تصحب من لا تعرف.

تعلّموا العلم؛ فإن تعلّمه جُنَّة، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعظيمه صدقة، وبذله لأهله قربــة، والعلم منار الجنة، وأنس من الوحشة، وصاحب في الغربة، ورفيق في الخلــوة، ودليل على الســرّاء، وعون على الضراء، وزيــن عند الأخلاّء، وســلاح على الأعداء، ويرفع الله بــه قوماً ليجعلهم في الخير أئمة، يقتــدى بفعالهم، وتُقتَصّ آثارهم، ويُصلِّي عليهم كلُّ رطب ويابس، وحيتان البحر وهوامُّه، وسباع البر وأنعامه"(١).

قد يكون ما قاله محمد هو الجزء الذي انتهى عند كلمة: "ولا تصحــب من لا تعرف"؛ لأنه لائق بمخاطبة مســافر، أما ما جاء بعده فخارج

(١) تذكرة ابن حمدون، لابن حمدون، ص: ٣٩٤، الجزء الأول.

عن موضوع السـفر إلى مخاطبة الخلق أجمعين، ولعل أحـد الأدباء المفكرين الناصحين - جزاه الله خيراً على قدر نيته، انتهز فرصة هذا المشجب النبيل، فعلق عليه النصيحة الضافية الملحقة.

جزاهم الله خيراً على ما قدموا، وعلى نيتهم الطيبة.

لفتة كريمة

الملـــوك والخلفاء والســـلاطين وأولياء أمور الناس، يتوقع منهم أن يفكروا بما يجعل مجتمعهم هادئاً، يعيش بســـلام، تتوافر فيـــه الطمأنينة، ويســـيطر الأمن، ويخيم الهدوء، وهم يدركون إذا كانوا أصحاب نية حســـنة، وتجربة عميقة، وفكر صافٍ، أن المشـــكلات قد تأتي من أفراد لا يدركون بُعد الأعمـــال التي يأتون بها مقلقة لصفحة المجتمع، ومربكة لصحفته، ولهذا يزنون أخطاء الأفرد بمـــا يجعلهم يحذرون من أي عمل مربك، قـــد يفيد صاحبه، ولكنـــه يضر بغيره، وبعض من يقدم على مثل هذا الخطأ، يقدم عليه

من باب الأثرة، وحب الذات، والتهاون بحقوق غيره، وبعضهم يرتكب ما يرتكبه نتيجة غفلة، وسدرة جاءته من لمعان الفكرة، ونورها المشع الذي أعمى بصيرته عما يكمن في زاوية مظلمة، قد يأتي منها خطأ عظيم، وخلل جسيم، يترتب عليه رد فعل ليس بالسهل.

والشعراء، لما في الشعر من إغراء، يقدمون على بعض الأخطاء؛ لأن لذة الشعر وجماله تنسيهم ما قد يكون وراء قولهم من آلام لغيرهم، والهجاء قد يكون المطية المريحة للركوب، فيركبونها، ويصولون ويجولون، وبقدر البهجة التي ترقصهم تأتي الآلام التي تعصر مهج من عنوهم بالهجو.

ومثل الهجو يأتي الغزل الذي يلمس محارم الناس، ويدخل الشر إلى بيوتهم، ويشهر بهم،

ومن النـــاس من يحب الشـــر، فيحظى المتغزل بالإعجاب، وينال التصفيق للاستزادة، وتنتفخ أوداج المتغزل، فيوغـــل ويفحش، مثلما يفعل صاحب القصة المتفســـخة في زمننـــا، والرواية المتدنية، الـــتي تداعب العواطف الرخيصة بحجة الحرية المظلومة، وبحجة الشّفافية المدّعاة. وبجانب هذا التشـــجيع والتصفيق والبهجة، والإعجاب المتناهـــي، تكون آلام من وقـــع عليهم الغزل، والناس في سكرة الفرح ينسون النار المشتعلة في أطراف الحي.

لقـــد أدرك هذا معاوية ﷺ واســـتبق الأمر، وأعطى نصيحة مـــلأى بالحكمة، وأبان جوانب قـــد تغيب عن كثير من الأذهـــان، وأبان ما قد يأتي به الغزل من العيوب، والنقص الذي يعانيه

المجتمع إذا حدث.

"قال معاوية لعبدالرحمن بن الحكم:

بلغني أنك قد لهجت بقول الشعر.

قال: قد فعلت.

قال: فإياك والتشبيب بالنساء، فتعرّ الشريفة، وترمي العفيفة، وتُقرّ على نفسك بالفضيحة، وإياك والهجاء، فإنك تحنق عليك كريماً، وتستثير سفيهاً، وإياك والمديح فإنه طعمة الوقاح، وتفحّش السؤال، ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الشعر ما تزين به نفسك، وتؤدب به غيرك"(١).

(١) التذكرة لابن خلدون (١/٣٩٤).

حيرة وحلّ

يفاجأ الإنسان أحياناً بلغز يُدخله بحار الحيرة، أو سؤال يجعله يتوه في أفلاك الفكر، ومساحات واسعة من الذهن، يقلب الأمر على جنباته، ويديره يمنة ويسرة، محاولاً أن يمسك طرف الحبل الموصل إلى الهدف، أو متتبعاً بصيصاً من النور؛ أملاً في أن يجد عند نهايته بغيته، وقد ينجح فتمتلئ نفسه غبطة، ويشعر بزهو؛ لأن ذهنه لم يخنه، بل زادت ثقته بنفسه، ويظهر ذلك على وجهه، ويرتسم السرور على محياه، شاعراً أنه انتصر على ما كان مغلفاً بشيء من التحدي، ويكون سروره ضعف خيبة أمل الملغِز أو السائل

الماكر. وخلاف ذلك إذا لم يستطع أن يجد طريقه إلى الحل، وعمِّيت عليه الأمور، وسدت الطرق وانكسرت عزته أمام انتصار الآخرين.

والإنسان في حياته الطويلة، إن أراد له الله أن يطول عمره، عُرْضة أن يقف مثل هذه المواقف مختاراً أو مجبراً، وكل إنسان لو استعرض حياته يجد أن هناك حصيلة من هذه الأحاجي، أو أسئلة التحدي، منذ صغره، وأثناء مروره بسنوات النضج، حتى الهرم.

وقد يهون الأمر على الإنسان إذا كان الملغز أو السائل سوي العقل، ويتوقع أن يأتي من ذهنه ما يجعل ما يأتي لائقاً به، ومتوقعاً منه ومن أمثاله، أما أن يأتي ذلك من مختل العقل، محجوزاً في مصحة عقلية، أو ما يماثلها، فهذا ما يجد المرء فيه

غبناً لا يمحى.

وهنا قصة ترسم صورة صادقة لموقف من هذه المواقف التي فيها السائل معروف أنه غير سوي، والمسؤول المتحدّى ممن عرف بالفكر، والتفرد بأحد جوانبه، والتزعم في هذا المجال، وهي من كتاب "عقلاء المجانين للنيسابوري" (ص: ١٤٤):

قال ثمامة بن أشرس:

دخلت دير هرقل، فرأيت شابّاً، مشدوداً إلى سارية، فقال لي:

ما اسمك؟

قلت: ثمامة.

قال: المتكلم؟

قلت: نعم.

قال: ياثمامة، هل للنوم لذة؟

قلت: نعم.

قال: متى يجدها صاحبها؟ إن قلت: قبل النوم، أجّلت، وإن قلت: مع النوم، أخطأت؛ لأنه ذاهب العقل. وإن قلت: بعد النوم أخطأت؛ لأنه قد انقضى.

قلت: وما تقول أنت؟

قال: إن النعاس داء يحل بالبدن، ودواؤه النوم".

تُرى أي الرجلين أعقل، المُقيّد أم المطلق؟

وما دام أن الجنون فنون، فلا بد أن في المخ ركن انزوى فيه بريق عقل.

جيل وجيل

خلق الله الخلق، وجعلهم مختلفين، ولعل اختلافهم عند التدقيق يماثل تعدد بصمات أصابعهم، فلا تجد بينهم من يشبه الآخر بدقة، حتى التوأم وظاهرهما واحد، لو دَقَّقْت في هذا الظاهر، لوجدت اختلافاً كبيراً، أما الباطن فحدث ولا حرج.

الناس يولدون مختلفين، ويختلف تقبلهم للتنشئة، فتغذية أحدهم لا تشبه غيره، وتقبل جسمه له طبيعة منفردة، والتربية تؤدي دوراً رئيساً، وتَقَبُّل الفرد لها لا يشركه فيه أحد، وهذا لا يعني أنه ليس هناك عامل مشترك. جاء من

كونهم أناســـاً، مختلفين عن باقي الحيوانات التي خلقها الله.

فاختلاف الغذاء مهما صغر، وانحراف التربية مهما كان طفيفاً، فإنه مع الزمن يكبر أثره، فإذا لم يكن هـــذا الاختلاف واضحاً في أول الأول، فإنـــه يأتي صارخاً فيما بعد، يـــراه المدقق وغير المدقق؛ فغلطة في الغذاء وترتيبة، أو ســـلامة في إعطائه، تؤدي دوراً كبيراً في نمو الجسم أو عدم نموه، وهذا بدوره يؤدي دوراً في نشاط الجسم أو كســـله، وما يأتي المـــرء في حياته، وما يدع؛ أمـــا الفكر فحدث ولا حـــرج في تأثره بالغذاء والتربية.

والفكر هو المدبر الأول لعمل الإنسان، وهو الـــذي يكيف تصرفات الفرد، فيوجهها يميناً أو

يســـاراً، والمجتمع تتكيف أموره بما يكون عليه أغلب أفراده، أو أكثرهم نفوذاً فيه، فهم الذين يُكوِّنونه؛ لأنهم لحمته وسداه، لبه وقشره.

فإذا كان هذا هو اختلاف الناس فيما بينهم، فمــا بالك باختلاف جيل عـــن جيل، وقوم في زمن عن قوم في زمن آخر، نتيجة للتفاعل الذي يحـــدث للفرد تدريجاً مع الزمن. هذا في الأزمان القديمة، عندما كان العالم يسير ببطء في اتصالاته ومواصلاته، وفي تطور مجتمعاته، أما اليوم فأصبح التطور سريعاً في الفرد والمجتمع، ولم يعد التطور نابعاً من المجتمع الضيق نفســـه، لقد أصبح آتياً من خارج المجتمعات المحدودة، وأصبح التأثير عالميّاً.

وفي الزمن القديم كان الناس يتهمون الزمان

أنه تغير وتبدل، وأنه هو الملوم على ما يأتي متبدلاً من حسن إلى سيئ، ومن مقبول إلى منتقد، ومن نافع إلى ضار، ولكنهم لا يعدمون من يؤكد لهم أن الزمن لم يتغير، وإنما الذي تغير الناس بأنفسهم، طوعاً منهم واختياراً، أو فرضاً عليهم وإجباراً، بل جاءهم من يقول لهم: إن بعض ما تظنونه تغير لم يتغير، ولكنكم تنسون أو تتناسون؛ فعندما يشكو شيخ طاعن في السن تصرف حفيده، وينتقد ما يأتي من تصرف شائن، أو فعل نابٍ، يذكره شيخ مثله بحوادث في صغرهما تمشى مع ما فعله الحفيد، حذو القذة بالقذة، فيفاجأ الشيخ بما كان نسيه، وتأتي منه ابتسامة اعتذار منكسرة، هصرها الحياء، وحناها الاستخذاء.

وفعل الزمن بالإنسان لا يعدو أن يكون مثل

المبرد المثبت، والناس تمــر عليه، فيأكل منهم، وهو غير ملوم، فهم يمرون عليه، ويلحون لحمهم وعظمهم، وهو ثابــت لا يعترض على فعلهم، الذي لا يستطيعون تجنبه؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد رتب الأمر فيه، ودبره ضمن ما دبر في الكون، إذ لا بد من فناء الإنسان، فالإنسان ينفذ إرادة الخالــق - جل وعلا - فهو في طريقه إلى الفناء المحتوم يضعف قليلاً قليلاً، حتى يتلاشى بالموت، هذا إذا لم يأتهِ الموت نتيجة عارض يؤدي به إلى انتهاء حياته، بمرض أو حرب أو هدم أو حريق أو غرق، أو حادث من الحوادث، وهي أسباب للفناء لا تحصى.

وفي التراث أقــوال مختلفة عن هذه الجوانب كلها، بعضها يتماشى مع الحق والواقع، وبعضها

يتجـــنى عليهما، جـــدّاً أو فكاهـــة، أو مغالطة وهروباً.

ونظرة صائبة عن اختلاف الأجيال نجدها في التـــراث قد أتت من كاتـــب نقدره حق قدره، لتفوق فكره، وَوَقْفِهِ نفســـه على التأمل في نتاج الفكـــر، وتدبـــره للقول قبـــل أن يقوله، وهو الجاحظ، الذي تعودنا منه الرأي الناضج، الذي جاء عن تفكير عميـــق، وتدبر طويل، أو تجربة متأنيـــة، وهو مثل غيره ممـــن يهتمون في صلاح المجتمعات، ورقي الفكر، وســـداد التصرف، فكر الجاحظ في اختلاف الأجيال، وأبدى رأيه الســـديد في جانب مهم منها، يقول في معرض حديثه في كتاب الحيوان:

"وينبغي أن يكون ســـبيلنا لمن بعدنا، كسبيل

من كان قبلنا فينا؛ على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا، كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا". [الحيوان: ١/٨٦].

الجاحظ هنا يقيس على زمنه، وما استفاده من جيل مضى، وما يرى أن الأمر سيكون عليه في الجيل المقبل، مفترضاً أن الأمور بمؤثراتها المختلفة سوف تبقى؛ فالعصر الذي هو فيه كان يشهد تقدماً مطرداً، في ضوء النهضة التي شهدها عصره، فالتراث، الذي سوف يتوافر، والعلم الذي سينشر، سوف يكون أكثر مما كان في الماضي؛ فإذا بقي الأمر على ما هو عليه في الازدياد اليومي، فإن من سيأتي من أجيال سيكون لديهم أكثر مما لدى سابقيهم وتكون حصيلتهم أوفر، واستفادتهم أكبر، وسيُعطون للجيل الذي بعدهم أكثر.

ولكن الدولة العباسية شاخت مع مرور الزمن، وأثَّر الضعف السياسي على التحصيل العلمي، وغاب تشجيع التأليف، والإنتاج الفكري؛ وزاد العناء الاجتماعي بالتطاحن السياسي، والتصادم العسكري، وتوج هذه المحنة غزو قبائل التتار الهمجي، مما قضى على مصادر الفكر، فأحرقت الكتب، وأهين العلماء، وتبعثرت مراكز النور المضيئة، وأصبح طلب العيش الكفاف، وأقل درجات الأمن، هي الغاية.

وتتالت الأجيال في ضوء هذا الضعف تنحدر حتى وصلت إلى مستقر سمح به الوقت. والجاحظ حين قال قوله لم يكن يتخيل أن شيئاً من هذا كان سوف يقع، وأنى له القدرة على ذلك؛ فلم تكن في زمنه علامات قد ظهرت تدل على وصول

الأمر إلى هذه الدرجة من التدني والانحدار.

والأمــور تتغير مــع الأفراد كمــا تتغير مع الجماعات، يفتقر الغني، فيبعد عنه من كان قريباً منه، ويهرم فيفقد من كان في سنِّه، ويأتي حوله جيل لا يرون فيه ما يراه في نفســه، فيحنق من ذلك، فيبعد في همته، ويأخذ باللوم على الجيل الجديد، ويصب عتبه عليــه، ويقارن حاله مع السابقين، بحاله مع اللاحقين، فيصب فيها مرارة لو فكر وأنصف لما فعل؛ فالأمر طبعي، ليس فيه شذوذ، ولا خروج عن قواعد سير المجتمعات؛ بل لو لم يحدث هذا، لأوجب الأمر دراسة تكشف عن أسباب خروج الأمر عن القاعدة.

والبيتان الآتيــان يرسمان صورة مريرة، تقطر أسى، وترشـــح عتباً وتأنيباً، وتكاد تصور حياة

كثيرين ممن عاصروا جيـــلاً ماضياً، ومد الله في حياقم، فعاصروا جيلاً جديداً ناشئاً:

"قال الحارث بن الوليد:

ذهب الذيـــن إذا رأوني مقبلاً
هشـــوا وقالوا: مرحباً بالمقبل
وبقيت في خلف كأن حديثهم
ولغ الكلاب تهارشت في منهل

[الحيوان: ١/٣١٩].

تـــرى هل يزيد غضب الحارث بن الوليد، أو ينقص، لو قيل له: إنكم من تربية جيل سابق، له الفضل فيما أنتم عليه، وهذا الجيل من تربيتكم، فأنتم الملومون، إذ لم تحسنوا التنشئة. ولم تجيدوا إصلاح هـــؤلاء، فيكون حديثهـــم نغماً جميلاً، تفخرون به وتفاخرون، وتفرحون وتباهون.

وهذا القول يصلح أن يقال لأناس كثيرين في زمننا، ممن يشــكون من أولادهم، ولا حجة لهم - عند بعض الناس - في أن المجتمع تغير؛ لأن المجادلين يقولــون: لماذا لم يتغير لأناس آخرين، أبناؤهم يشــبهون من مدحتموهــم في الزمن الماضي، وأثنيتم على تصرفهم؟

والحقيقة أن تربية الناشئ أمر ليس بالسهل، ويحتاج أن يعطى وقتاً كافياً لإفادته وحمايته، قد لا يتصــور كثير من الناس مقــداره؛ فإذا كان وقت الوالدين في الماضي يسمح بتوفير الوقت الــكافي، فوقتهما في هذا الزمــن قد لا يكون بكفاية الزمن الســابق؛ فالحياة لم تعد بالبساطة التي كانت عليها، فالتأثير على الشــاب أصبح يأتي من خــارج البيت أكثر مما يأتي من البيت،

لانشـــغال الوالدين بما أصبح مجتمعهما يطلبه، بحق أو بدون حق، فالأب يقضي وقتاً في طريقه إلى العمـــل، ذاهباً وآيباً؛ وقد تأخذه راحته مع أصدقائـــه عن بيته الذي لم يعـــد تعلقه به تعلق والـــده أو جده ببيتـــه. والأم التي قد لا تكون في حاجـــة إلى عمل خارج بيتها، تجد أن عيوب المجتمع وعاطفتها قد أجبرتها أن تعمل وأن تترك بيتها فترة لم تكن والدتها تتركه فيها.

وأصبحت الملهيات والمغريات فوق ما تتحمله إرادة الناس، وأصبح المسؤول عن البيت يُسلِّم للضغوط الجانحة طلباً للسلامة، ورغبة في راحة البـــال، وإلا جاء الإصرار بعيون عائلية أكثر مما كان يريد الهرب منه. ويبقى توفيق الله – سبحانه وتعالى – يُتدارك به بعض الأمر مع بعض الناس،

وكله مع بعض آخر، ولهذا جاءت التربية ونتيجتها متفاوتة، نتيجة طبيعة الناس وظروفهم[1].

ويدخل الزمن والجيل في نظرة أحد الشعراء؛ ونظرته مخالفة لما خلق الله الناس عليه، وما هو جبلة فيهم، وهو الأمل في طول العمر، وامتداد الحياة، فيكدح الإنسان ويكد، حتى يتمتع في حياته، وبعاطفته يؤمل أن يترك لأولاده ما يجعلهم يعيشون عيشة رخية.

وحبل الأمل عند الإنسان طويل، وإذا كان المرء سوّياً، فإنه يحسن الظن، ويرجح التفاؤل، ولا يجعل لليأس عليه طريقاً، ويفكر في عمله بالحياة، وهو وإن كان يذكر الموت إلا أن هذا لا يعيقه عن متطلب الحياة، وما عليه لنفسه،

---

(١) هذه إضافة إلى ما نشر في عكاظ.

ولمجتمعه، وللجيل المقبل؛ وقصة الفلاح الذي كان يغرس نخــلاً، قد لا يعيش ليأكل منه، وقد يموت قبل أن يثمر، قياســاً على عمره المتقدم، الذي أكلته السنون، وعلى الزمن الذي تحتاجه النخلة منذ أن تغــرس إلى أن تؤتي أكلها بإذن ربها، فيأكل مما غرس ورعى، وعندما جوبه هذا الفلاح بما ظن أنه أقرب إلى أن يحدث، وهو موته قبل أن يجني ثمرة غرسه، ردّ ردّاً حكيماً، وكأن الغريزة فيه هي التي تتكلم، فقال:

"غرسوا فأكلنا، ونغرس ليأكلوا"

دَيــن حمِّله، يؤديه بأمانة وإخلاص، واعتراف بالحق وبعــد عن المكابــرة، والغفلة عما يجب عليه. أما الذي عاتب حوشباً في البيتين الآتيين، وانتقده على فعله المصيب، فهذا خارج عن جادة

الصواب، والبيتان هما:

"قال بعض القدماء:

ألم تَرَ حوشباً أضحى يُبنِّي
قصوراً نفعها لبني نفيلة
يؤمل أن يعمر عمر نوح
وأمر الله يحدث كل ليلة

[الحيوان: ٣/١١٣].

ويأتي نص يلمس المقارنة بين زمنين، ويصدر ناشر حكمه ويصور صورة توضح رأيه، ويأتي راوٍ بشعر يبدى فيه الشاعر رأيه:

"قد قيل:

تجارب المتقدمين مرايا المتأخرين، كما يبصر فيها ما كان يتبصر بها فيما سيكون.

والشاعر قال:

والدهـــر آخـــره شـــبه بأوله
نـــاسٌ كنـــاسٍ وأيـــام كأيام

وتشبيه الأزمان الماضية بالمرايا تعبير صادق؛ لأن الناس يعيدون أفعالاً مثل أفعال الســـابقين، فتأتي النتائج الحديثة مطابقة تماماً للنتائج القديمة، مثلما يرى الإنسان وجهه في المرآة، لا يرى بينه وبين الوجه الذي يظهر فيها فرق؛ لأن ما حدث في الماضي يخضـــع لنظام لا يختل، فالمقدمات إذا جاءت بصـــورة معينة جاءت النتائج حتمية لها؛ وإذا تطابقت الأســـباب ومقدمـــات الحوادث ومجراها فإن النتائج لا يغيرها الزمن؛ ولهذا قال من قال: إن التاريخ يعيد نفسه.

وأكد الشاعر الرأي، فهو يعطي تجربته زبدة في بيت، وهذا الشاعر يقف في صف الذين يبرؤون

الزمـــن من التأثير على النـــاس، ورأيه هذا يأتي ضمناً، وإن يبعد فيقول: إنه ليس هناك اختلاف ولا بد أن في ذهنه ما في ذهن الناثر قبله، الذي يجعل التجارب مرايا.

ويعارض فريق هذا الرأي، ويأتي شـــاعرهم ،فيؤكد أن أهل زمانـــه تغيروا عما كانوا عليه؛ ولعل مبعث قوله الحنق الذي يشعر به تجاه بعض من تعامل معهم، مما يوحي به البيت الثاني:

"أنشد عبدالله بن شبيب:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم
وما الدهر بالدهر الذي أنت تعرف
وما كل من تهـــوى يودك قلبه
ولا كل من صاحبته لك منصف

وهذا القول يتفق مع القول الذي قاله الحارث

ابن الوليد السابق، وعبدالله بن شبيب مثل الحارث متأثر بحادثة واحدة، أو حوادث متعددة، لونت رأيه، وصبغت القاعدة التي أطلقها، فهو متأثر، وغير متجرد. ومتى دخل الهوى في الأمر اعوج القول، وفسد الرأي.

ولكن شبيباً صادق في بيته الثاني، والقاعدة التي جاء بها صحيحة؛ لأن بعض طبائع الناس مثلما قال، وهو رأي ثابت يأتي بصور مختلفة، وقد جاء مرة بهذه الصورة:

جننا بليلى وهي جنت بغيرنا
وأخرى بنا مجنونة لا نريدها

وهذه القاعدة يمكن أن تأتي في صورة سلسلة طويلة من الحب والصدود!

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يُروى له رأي في

هذا، ورأيه مختصر، ولكنه شارك في أحد الرأيين السابقين، يقول:

"الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم".

[بهجة المجالس: ٢/٦٥١].

ويروي الجاحظ هذا القول لعروة، وهو يعظ بنيه:

[البيان والتبيين: ٢:٢٠٢].

والحنق في الكبر على تغير الناس تجاه الشيخ الهرم يقوى ويضعف، ولكن الشكوى متوافرة؛ لأن الشيخ الكبير يشعر بالفراغ حوله، فتأخذه وحشـــة، وتنمو عنده مرارة يؤول بها أفعال من حولــه، وهو يريد الناس في آخـــر عمره مثلما كانوا له في أول عمره، وينسى أنه هو تغير، ولم يعد يدخل ضمن المجتمع كما كان في شـــبابه،

وبعضهم يصرح بأنه فقد من ألفهم، وكانوا ضياء حياته، كما فعل خبار بن أوفى النهدي، وهو شاعر إسلامي، وله قصة مع معاوية كشف فيها ما يجول داخله:

"دخل على معاوية، فقال له:

ما صنع بك الدهر؟

فقال: يا أمير المؤمنين، صدع قناتي، وشيب سوادي، وأفنَى لداتي، وجرَّأ عليّ أعدائي. ولقد لقيت زماناً آنس بالأصحاب، وأسبل الثياب، وآلف الأحباب؛ فبادروا عني، ودنا الموت مني".

[معجم الأدباء: ١١/ ٩٠].

وإذا كان هذا خبار لضعفه، وما طرأ على نفسه من معاناة من الناس، فهناك من وصف

تحول قوة مجتمع إلى ضعف ومن المتعة إلى الذلة، وقد رسم الشاعر الحارث بن نمر التنوخي صورة لهذا، أتقنها، حيث يقول:

وقد تقلب الأيام حالات أهلها
وتعدو على أسد الرجال الثعالب

[تسهيل النظر: ٢١٢].

والحارث هنا جعل للأيام يداً فيما آل إليه حال أناس؛ وهــو أمر يجعله يقترب من أحد الفريقين اللذين ذكرناهما من قبل: من يحمل الزمن سبب التغير، ومن يحمل الناس ذلك؛ بعضهم يؤكده، وبعضهم يلمسه لمساً خفيفاً، كما فعل الحارث هنا.

الفهارس

١) فهرس الموضوعات حسب ورودها.
٢) فهرس الموضوعات حسب حروف الهجاء.
٣) فهرس الأسماء.
٤) فهرس الأماكن.
٥) فهرس الأشعار.
٦) المصادر والمراجع.
٧) فهرس الآيات والأحاديث.

١) فهرس الموضوعات حسب ورودها

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
قالوا وصدقوا	١٠
كلمات توزن بالجواهر	١٨
ضياء الحق ونور اليقين	٢٥
الأحاجي وما وراءها	٣٠
إعطاء الجنون إجازة	٤٤
من نتائج سوء النية	٤٩
إشعاع السليقة	٥٤
إضاءة	٥٦
رأي صادق	٦٢
حجة مُلجِمة	٦٩
الناس والحاكم	٧٣
عداء متأصل	٧٩

نهج في الحَجاج ٨٣
خير الأمور الوسط........................ ٨٧
باب في الإنصاف ٩٠
حيلة ٩٦
سياسة ناجحة........................ ١٠٠
الرأي أقوى سلاح........................ ١٠٥
الحزم صديق........................ ١٠٩
ثمن الأمان ١١٣
من هموم القضاة ١١٩
قناعة بالإجبار ١٢٥
نور على نور ١٢٩
فخر ولا فخر........................ ١٣٦
نور في القلب........................ ١٤٠
عن الحِجاج ١٤٥
الفصاحة سلاح........................ ١٤٩
من عمق النفس........................ ١٥٢
النفاق ذنب عظيم ١٥٦

عدم التوفيق ١٧٠
ماذا وراء النّص........................... ١٧٤
نور وديجور........................... ١٧٩
مدخل للطعن........................... ٢٠٩
من قصص الباطل........................... ٢٣٤
البر المتبادل بين ابنة وولي أمرها........................... ٢٤١
ما وراء الكتابة ٢٤٨
أوصاف ناقة........................... ٢٥٢
رياضة الصيد........................... ٢٥٥
الشعبي المُحيِّر........................... ٢٦٠
خيال محلق........................... ٢٦٧
الجاحظ وإحدى قصصه........................... ٢٨٩
العقل أم الشجاعة؟ ٢٩٥
سجال المعاني والألفاظ ٢٩٩
عقل في رأس مجنون ٣٠٣
بين اللسان والأذن........................... ٣٠٧
إضاءة الحزم........................... ٣١١

النحل والوضع ٣١٦
إنها النفس وليس الحال ٣٣٠
إشارة القلب للعين ٣٤٥
في فمي ماء ٣٥٧
لذة العطاء ٣٦١
مواعظ الأصمعي ٣٦٥
العقل المنجد ٣٧٠
العداوة أنواع ٣٧٤
حدة أنياب الطمع ٣٨١
درر من القول ٣٨٥
لفتة كريمة ٣٨٩
حيرة وحل ٣٩٣
جيل وجيل ٣٩٧

٢) فهرس الموضوعات حسب حروف الهجاء

الموضوع الصفحة

(أ)

الأحاجي وما وراءها ٣٠
إشارة القلب للعين ٣٤٥
إشعاع السليقة ٥٤
إضاءة ٥٦
إضاءة الحزم ٣١١
إعطاء الجنون إجازة ٤٤
إنها النفس وليس الحال ٣٣٠
أوصاف ناقة ٢٥٢

(ب)

باب في الإنصاف ٩٠
البر المتبادل بين ابنة وولي أمرها ٣٤١
بين اللسان والأذن ٣٠٧

(ث)

ثمن الأمان ١١٣

(ج)

الجاحظ وإحدى قصصه ٢٨٩

جيل وجيل ٣٩٧

(ح)

حجة ملجمة.. ٦٩

حدة أنياب الطمع ٣٨١

الحزم صديق.. ١٠٩

حيرة وحل ٣٩٣

حيلة ٩٦

(خ)

خيال محلق.. ٢٦٧

خير الأمور الوسط.................................... ٨٧

(د)

درر من القول ٣٨٥

(ر)

الرأي أقوى سلاح ١٠٥

رأي صادق ٦٢

رياضة الصيد ٢٥٥

(ض)

ضياء الحق، ونور اليقين ٢٥

(س)

سجال المعاني والألفاظ ٢٩٩

سياسة ناجحة ١٠٠

(ش)

الشعبي المُحيِّر ٢٦٠

(ع)

عداء متأصل ٧٩

العداوة أنواع وفنون ٣٧٤

عدم التوفيق ١٧٠

العقل أم الشجاعة؟ ٢٩٥

العقل المنجد ٣٧٠

عقل في رأس مجنون ٣٠٣
عن الحجاج ١٤٥

(ف)

فخر ولا فخر........................ ١٣٦
الفصاحة سلاح........................ ١٤٩
في فمي ماء ٣٥٧

(ق)

قالوا وصدقوا........................ ١٠
قناعة بالإجبار ١٢٥

(ك)

كلمات توزن بالجواهر ١٨

(ل)

لذة العطاء........................ ٣٦١
لفتة كريمة ٣٨٩

(م)

ما وراء الكتاب........................ ٢٤٨
ماذا وراء هذا النص؟ ١٧٤

مدخل للطعن ٢٠٩
مقدمة ٥
من عمق النفس ١٥٢
من قصص الباطل ٢٣٤
من نتائج سوء النية ٤٩
من هموم القضاة ١١٩
مواعظ الأصمعي ٣٦٥

(ن)

الناس والحاكم ٧٣
النحل والوضع ٣١٦
النفاق ذنب عظيم ١٥٦
نهج في الحِجاج ٨٣
نور على نور ١٢٩
نور في القلب ١٤٠
نور وديجور ١٧٩

٣) فهرس الأسماء

الاسم ... الصفحة

(أ)

إبراهيم بن بريهة .... ٦٠، ٥٨، ٥٧
إبراهيم بن السندي ٣٦٣
إبراهيم بن محمد ٣٥٠
إبراهيم بن المنذر الخزامي ١٥٣
الإبل ٢٨٤
ابن أبي بكر المؤملي ١٥٠
ابن أبي عون .... ٣١٠، ٢٩٧
ابن حمدون .... ٢١٣، ٢١٠، ٢٢١، ٢٥٤، ٢٥٣
ابن شهاب ٢٩
أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري ٢٨
أبو جعفر المنصور ..... ٩٣، ٩٥، ١٢١، ١٢٢، ١٢٧، ١٢٨،
١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٤، ١٧٢، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧،
١٨٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١

أبو الحسن علي بن محمد المعافري المالقي ٢٦١
أبو الحسن المدائني ١٤٦
أبو خازم عبد الحميد بن عبد العزيز السكوني ...... ١٩٦! ١٩٧
أبو الخطاب زياد بن يحيى ٣٢١
أبو سمال الأسدي ١٤٧
أبو العباس المبرد ١٥٩
أبو القاسم حمزة بن محمد الكناني ٢٨
أبو القاسم عبيد الله بن سليمان ٢٠١
أبو موسى الفضل ٣٤٨
أبي الأسود .... ١٧٥! ١٧٧! ١٧٨
أبي الحسن محمد بن هلال الصابي .... ١٥٩! ٣٢٠
أبي عالية الرياحي .... ٣٠١! ٣٠٢
أبي العباس السفاح .. ١٥٩! ١٦١! ١٦٢! ١٦٣! ١٦٤! ١٦٦
أبي عمرو المدائني ١٥٤
أبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري ... ٤٧! ٣٠٤!
٣٩٥
إحسان عباس ٢٥٠

أحمد بن بديل الكوفي ٢٠١

أحمد بن سعيد الدمشقي ١٥٠

أحمد بن موسى ١٣٠

الأحنف بن قيس .... ٣١٥! ٣١٤! ٣١٣! ٣٠٨

أردشير ٢٣

أرسطو طاليس ١٢

أسامة بن منقذ .... ٢٥٩! ٢٥٦

إسحاق بن مسلم العقيلي .... ١٢٨! ١٢٧

الإسكندر الكبير بن فيليبوس المقدوني .... ١٢! ١٤

إسماعيل الطالقاني ٢٣

الأصمعي ...... ٨٥! ٨٤! ٣٦٩! ٣٦٨! ٣٦٧! ٣٦٦! ٣٦٥!
٣٢٠! ٢٩٢! ٢٣١

الأفاعي ٢٨٨

آل عمرو بن العاص ٢٢٧

أم سلمة المخزومية .... ١٦٦! ١٦١

امرؤ القيس .... ٢٩٤! ٢٩٢

الأمين ١٣٠

الأوزاعي ٣٠٩

أيوب السختياني ٥٥

(ب)

بكر عباس ٢٥٠

بني تميم ٢٣٢

(ث)

ثمامة بن أشرس .... ٣٩٥ !٣٩٦

(ج)

الجاحظ .... ٢٨٩ !٢٩٢ !٢٩٤ !٣٦٣ !٤٠٣ !٤١٥

الجبل .... ٢٧٨ !٢٧٩ !٢٨٣

الجن ٢٨٨

(ح)

حاتم .... ٣٣٥ !٢١٢ !٢١٣

الحارث بن نمر التنوخي ٤١٧

الحارث بن الوليد .... ٤٠٦ !٤١٣ !٤١٤

الحافظ البستي ٣٠٧

الحجاج بن يوسف الثقفي .... !١٩١ !١٩٠

٩٢! ٩٣! ٩٤! ٩٥! ٩٧! ١١٥! ١٤٥! ١٤٦! ١٤٧! ١٤٨!
٢٢٣! ٢٢٤! ٢٣١! ٢٣٢! ٢٣٦! ٢٣٩
الحسن البصري .... ٨٦! ٨٥
الحسن بن زيد بن الحسين بن علي ٩٣
حمد العبد الله القاضي ٢٤١
الحيات ٢٨٨

(خ)

خالد بن صفوان ... ١٦٩! ١٦٨! ١٦٦! ١٦٥! ١٦٢! ١٦١!
١٥٩! ١٣٨
خالة حاتم طيء ٣٣٣
خبار بن أوفى النهدي ٤١٦
خليل بن أيبك الصفدي ٣٧٣
الخوارج .... ١٤٥! ١١٥! ٩٠! ٨٦! ٨٥
الخيزران .... ٣٥٥! ٣٥٤! ٣٥٣! ٣٥٢! ٣٥١! ٣٤٩! ٣٤٨

(د)

دار موسى بن طلحة ٢٦٢
دارا ١٣

داود بن أبي الكرام الجعفي .... ١٧١ !١٧٢
دريد بن الصمة ٢١٣

(ذ)

ذئب .... ٢٧٨ !٢٨١ !٢٨٤ !٢٨٨
الذئاب ٢٨٨

(ر)

الربيع .... ١٣٠ !١٣٢ !١٣٣ !١٣٤
رزام ٤٧
رســـول الله – صلى الله عليه و سلم – (النبي).. ٢٥! ٢٨! ٢١٠!
١٦٤! ١٠١! ٤٢! ٤١! ٢٩! ٢٨! ٣٠٨! ٣٣٧! ٢١١! ٢٣٨!
٣٠٨
الرشيد (هارون الرشيد) ..... ٨٨! ١٧٢! ٢٣٠! ٢٣١! ٣٧٩!
٣٨٠
الرعيل بن الكلب ٢٥٣
الروماتيزم ٢٨٦
الريح .... ٢٩٣ !٢٩٤

(ز)

الزبير .... ٥٤ !٥٧ !١٤٦ !١٥٠ !١٥٣

الزبير بن بكار .... ٣٨٢ !٥١ !١٢٦

زياد .... ٢٢٢ !٢٢٣

زياد بن أبيه .... ١١١ !١١٤ !١١٧

زينب بنت سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس . !٣٥١ !٣٥٣

٣٤٨ !٣٤٩ !٣٥٠

(س)

سابور بن أردشير ٢٤

سلم بن قتيبة .... ١٥٤ !١٥٥

سليمان – عليه السلام – ٤٢

سليمان بن علي .... ١٦٨ !١٦٩

سـليمان بن عبد الملك بن مروان .. !٢٢٦ !٢٢٨ !٢٣٠ !٢٣١

٢٢٣ !٢٢٤ !٢٢٥

(ش)

الشافعي .... ٣٩ !٤٠ !٤١

شعبة بن علقمة التميمي ٢١

الشعبي (عامر بن شراحيل الشعبي الحميري) ٢٦٦! ٢٦٥! ٢٦٤!
٢٦٢! ٢٦١! ٢٦٠! ٣٢٠! ٣٢١! ٣٢٨! ٣٢٧! ٣٢٦! ٣٢٥!
٣٢٤! ٣٢٢
الشمردل .... ٢٢٩! ٢٢٨! ٢٢٧
الشيطان .... ٦٦! ٢٩١! ٣٠١

(ص)

الصاحب بن عباد (إسماعيل الطالقاني) ٢٣
صفوان بن محرز ٢١٥
الصقور ٢٥٦

(ض)

الضبعي ١٩٦
ضرار بن القعقاع بن معبد بن زرارة .... ٢١٤! ٢١٣
ضمرة بن ربيعة ٣٠٥

(ط)

طاهر بن الحسين ٣٨٢

(ع)

عائدة الطيبي ٢٦٦

عائشة بنت طلحة .... ٢٦٣! ٢٦٥
عاصم بن عمر ٢١٦
عباس محمود العقاد ٣٥٦
عبد الرحمن بن حسان .... ١٠٨! ١٠٧
عبد الرحمن بن الحكم ٣٩٢
عبد العزيز الخويطر ٢٧٤
عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ٥١
عبد الله بن أبي عبيد بن محمد بن عمار بن ياسر ١٥٠
عبد الله بن أبي فروة ٢٦٥
عبد الله بن جعفر ... ٣٣٦! ٣٣٧! ٣٣٩! ٣٤٠! ٣٤١! ٣٤٣
عبد الله بن داود ٥٣
عبد الله بن زياد بن ظبيان التميمي ١٤٧
عبد الله بن شبيب .... ٤١٣! ٤١٤
عبد الملك بن مروان ٣٢١! ١١٥! ١١٠! ١٠٩! ٣٢٤! ٣٢٥!
٣٢٦
عبد الملك الثعالبي ٣٩٥
عبيد الله بن زياد ٢١٣

عبيد الله بن سليمان .... ١٩٦؛ ١٩٧؛ ٢٠١؛ ٢٠٥؛ ٢٠٦
عرابة الأوسي .... ٣٣٦؛ ٣٣٨؛ ٣٣٩
عروة ٤١٥
العقاب ٢٥٧
علي بن أبي طالب .... ٢٢١؛ ١٧٦؛ ١٧٥
علي بن حسين ٢٩
علي بن عبد الملك ٤٧
عمر بن الخطاب .... ٢١٧؛ ٢١٦؛ ٧٧؛ ٧٦؛ ٧٥؛ ٧٤؛ ٧٣؛
٣٥٦؛ ٤١٤
عمر بن عبد العزيز .... ٥٣؛ ٢٢٨؛ ٣٢٥
عمرو بن معد كرب .... ١٥١؛ ١٥٠

(غ)

غازي القصيبي ٢٧٢
غسان بن عباد .... ٥٧؛ ٥٨؛ ٥٩؛ ٦٠؛ ٦١

(ف)

الفضل بن الربيع .... ٣٨٢؛ ٣٨٣؛ ٣٨٤
الفيل ٢٢٠

(ق)

قاسم السامرائي ٢٥٩

قبيلة قيس ٣١٤

قتيبة بن مسلم ٢١٤

قيس بن ثعلبة ٣٢١

قيس بن سعد .... ٣٣٦، ٣٣٧

(ك)

كسرى .... ١٦٣، ١٦٤، ١٦٨، ٢٣٩

كعب ٣٠٩

(ل)

لبيد بن ربيعة .... ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٦

لقمان ٣٠٨

(م)

الماء .... ٢٩٣، ٢٩٤

مالك (الإمام مالك بن أنس) .... ٢٩، ٣٩، ٤١، ٣٠٨

المأمون .... ٥٧، ٥٩، ٦٠، ٦١، ١٧١، ١٧٢، ٣٨٣

مجاشع بن مسعود .... ١٥٠، ١٥١

المجلة العربية .... ٥، ٢٤٧
مجلة الفيصل ٥
محمد بن الأشعث .... ٣١٣، ٣١٥
محمد بن سلام ٥٤
محمد بن علي بن الحسين .... ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٧
محمد بن يحيى العلوي ١٧١
مُرّيّة بنت مروان بن محمد .... ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٥١
المسور بن مخرمة .... ٧٠، ٧١
مصعب بن عبد الله .... ٥٧، ١٧٢، ٣٨٢
مصعب بن الزبير .... ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٤
معاوية ٧٠، ٧١، ٨٠، ٨١، ٨٢، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣،
١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١١، ١١٤، ١١٦،
١١٧، ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٣١١،
٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥، ٣٤٣، ٣٩١، ٣٩٢، ٤١٦
المعتضد .... ١٩٦، ١٩٧، ٢٠١
معن بن زائدة ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١
المقري ١٣٠

ملك الروم .... ٨٠، ٨١، ٨٢

الملك عبدالعزيز .... ١١٢، ٢٧٤

المهدي ..... ١٧٢، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٣٩، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤

موسى بن بغا .... ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨

المومياء ٢٧٧

(ن)

النار ٢٨٣

النعام ٢٢٨

النعمان بن بشير ٢٨

(هـ)

الهادي ١٧٢

هرقل ٣٩٥

هشام بن عبدالملك .... ١٣٨، ٢٥٣

الهيثم ٣٢١

الهيثم بن عدي ٣٢٦

(ي)

يزيد بن معاوية .... ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣

يزيد بن المهلب .... ٢٢٦، ٢٩٦

يونس (عليه السلام) ٤٢

٤) فهرس الأماكن

الاسم ... الصفحة

الإسكندرية ١٣
البحر الأبيض المتوسط ١٣
البصرة .... ١٥٤، ٢٩٤
بلاد فارس ١٣
بيروت ٢٥٠
الجبل .... ٢٧٨، ٢٧٩، ٣٨٣
جزيرة العرب ٦٨
خراسان ٥٩
دمشق .... ٥٢، ٥٣
الربع الخالي ٦٨
رحبة بني تميم ١٥٠
الرياض ٢٥٩
الشام .... ٦٥، ١٠١، ١١٤، ١٤٦، ٢١٤
الصين ١٣

طرطوس ٤٧
العراق .... ٤٥، ٤٦، ٩٠، ١٠١، ١١٠، ١١٤
الفرات ٢١٤
الكرك والشوبك ٦٥
الكوفة .... ١٨٣، ٢٩٢، ٣٦٣
مصر ٢٧٣
مكة ٨٨
المملكة العربية السعودية .... ٤٦، ٢٧٤
الهند ١٣
اليمن .... ١٣٨، ١٨٦

٥) فهرس الأشعار

القافية	الصفحة
(أ)	
قـــالـــت الـــضـــفـــدع قـــولاً	
فهمتـــــــــه الحكمـــــــــاء	٣٦٠
(ب)	
وقـــد تقلـــب الأيام حـــالات أهلها	
وتعدو على أســد الرجــال الثعالب	٤١٧
(د)	
تراه خميـــص البطن والـــزاد حاضر	
عنيـــد ويغـــدو في القميـــص المقدد	٢١٣
—	
عُمِّـــرت جنبـــاً بعد مجـــرى داحس	
لـــو كان للنفـــس اللحـــوح خلود	٣٢٣
—	
ولقد ســئمت مــن الحيــاة وطولها	
وســؤال هذا الخلق: كيــف لبيد؟	٣٢٤

(ر)

أبــو منــذر جارٌ لهــا وابــن برثن
فيالــك جــارَي ذلــة وصغــار ١٦٨

أليــس في مئــة قد عاشــها رجل
وفي تكامــل عشــر بعدهــا غِــير ٣٢٣

(ع)

أبيتُ خميص البطن مضطرم الحشــا
من الجوع أخشــى الذم أن أتضلعا ٢١٢

(ف)

وما النــاس بالناس الذيــن عهدهم
وما الدهــر بالدهر الذي أنت تعرف ٤١٣

(ل)

ذهــب الذيــن إذا رأوني مقبــلاً
هشّــوا وقالــوا: مرحبــاً بالمقبــل ٤٠٦

فإيــاك إيــاك المــزاح فإنــه
يُجرى عليــك الطفل والدَّنِس النذلا ٣٦٩

قد قيل ما قيـــل إن صدقاً وإن كذباً
فمـــا اعتـــذارك من قـــول إذا قيلا ٢٩٠

(م)

كأن وراء الســـتر فـــوق فراشـــها
قناديـــل زيـــت مـــن وراء قـــرام ٢٩٣

—

كأني وقـــد جاوزت تســـعين حجة
خلعـــت بهـــا عـــذار لجامـــي ٣٢١

—

والدهـــر آخـــره شـــبه بأولـــه
نـــاس كنـــاس وأيـــام كأيـــام ٤١٢

(ن)

راحت تشـــكّى إليّ النفس مجهشـــه
وقـــد حملتـــك ســـبعاً بعد ســـبعينا ٣٢٣

—

ومازلـــت في ليلى لدن طر شـــاربي
إلى اليـــوم أخفـــي إحنـــة وأداحن ٢٦٣

(هـ)

جئنــا بليلــى وهــي جنــت بغيرنا
وأخــرى بنــا مجنونــة لا نريدهــا ٤١٤

ألم تــر حوشــباً أضحــى يُبنِّــي
قصــوراً نفعهــا لبــني نفيلــه ٤١١

(ي)

كأني وقــد جاوزت تســعين حجة
خلعــت بهــا عــن منكــبي ردائيا ٣٢٣

٦) المصادر والمراجع

١- الأجوبة المسكتة، لابن أبي عون.
٢- أخبار طرائف عن الملوك والخلفاء والمغنين والشعراء والعشاق، لفخر الدين فخر الدين.
٣- الأخبار الموفقيات، الزبير بن بكار، عالم الكتب، تحقيق: د. سامي مكي العاني، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٤- أي بني، عبدالعزيز الخويطر
٥- بهجة المجالس
٦- البيان والتبيين للجاحظ ، تحقيق فوزي عطوي، دار صعب
٧- التذكرة الحمدونية، لمحمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، تحقيق إحسان عباس وبكر عباس، دار صادر بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤م
٨- تسهيل النظر.
٩- تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون، لخليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، منشورات المكتبة العصرية
١٠- خاص الخاص، للثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت،

١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
١١- الحدائق الغناء في أخبار النساء، أبو الحسن علي بن محمد المعافري المالقي، تحقيق وتقديم الدكتورة عائدة الطيبي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
١٢- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، للحافظ البستي.
١٣- زهر الآداب وثمر الألباب ، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني، عناية الدكتور زكي مبارك، الطبعة الثانية، المكتبة الرحمانية بمصر.
١٤- عقلاء المجانين، أبي القاسم الحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري.
١٥- كتاب الأذكياء.
١٦- كتاب الاعتبار، لأسامة بن منقذ، تحقيق: د. قاسم السامرائي، دار الأصالة للثقافة والنشر والإعلام، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١٧- كتاب الإعجاز والإيجاز، للثعالبي.
١٨- كتاب الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي.
١٩- كتاب الحيوان، للجاحظ.
٢٠- كتاب ذيل ثمرات الأوراق.

٢١- المختـــار من نـــوادر الأخبار، لشـــمس الدين محمد بن أحمد المقـــري، دار ابن حزم، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.
٢٢- معجم الأدباء، لياقوت الحموي.
٢٣- نشوار المحاضرة.
٢٤- الهفـــوات النادرة، لغرس النعمة أبي الحســـن محمد بن هلال الصابي، تحقيق: د. صالح الأشتر، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٧) فهرس الآيات والأحاديث

أولاً: فهرس الآيات:

١- {فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا} النور٦١، ص٧٤
٢- {لِمَثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلْ الْعَامِلُونَ} الصافات٦١، ص١٤٦
٣- {وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا} البقرة١٨٩، ص٧٤
٤- {وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ} الأعراف٣١، ص٢١٠
٥- {ولا تجسسوا} الحجرات، الآية ١٢، ص٧٤
٦- {وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي}الشعراء١٣! ص٣٥٨

ثانيا: فهرس الأحاديث:

١- "أخاف على أمتي ثلاثاً: ضلالة الأهواء، وإتباع الشهوات في البطون والفروج والغفلة بعد المعرفة" ص ٢١٠
٢- "استعيذوا بالله من نفس لا تشبع" ص ٢١١
٣- "إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله،

ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه" ص٢٦

٤- "الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور مشـــتبهات، فمن تركها كان أوفى لدينه وعرضه، ومن واقعها كان كالراتع حول الحمـــى، ألا إن لكل ملك حمـــى، ألا إن حمى الله محارمه" ص ٢٨

٥- "لا يكب الناس على وجوههم في النار إلا حصاد ألسنتهم" ص٣٠٩

٦- "ما زين رجلاً بزينة أفضل من عفاف بطنه" ص٢١١

٧- "ما ملأ أدمي وعاءَ أنتن من البطن، بحسب المرء من طعمه ما أقام صلبه، أما إذا أبت فثلث طعام، وثلث شـــراب، وثلث نفس" ص٢١١

٨- "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو يصمت" ص ٣٠٨

نبذة عن المؤلف

- ولد عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م) في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية.
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة.
- حاصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ.
- حصل على الدكتوراة في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ.
- عين في العام نفسه أميناً عامّاً لجامعة الملك سعود ثم وكيلاً لها.
- درّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب.
- انتقل من الجامعة رئيساً لديوان المراقبة مدة عامين تقريباً. ثم وزيراً للصحة مدة عامين تقريباً. ثم وزيراً للمعارف (التربية والتعليم) مدة واحد وعشرين عاماً.

* عُيّن في ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء.

كتب صدرت للمؤلف

- نشـــر عام ١٣٩٠هـ كتاب: "الشـيخ أحمـد المنقور في التاريخ".
- ألّف عام ١٣٩٠هـ كتاب: "عثمان بن بشر".
- ألّف عام ١٣٩٥هـ كتيب: "في طرق البحث".
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك "الظاهر بيبرس" باللغتين العربية والإنجليزية.
- حقق عـام ١٣٩٦هـ كتاب: "الروض الزاهر في سـيرة الملك الظاهر" ونشره.
- حقق كتاب: "حسـن المناقب السـرية المنتزعة من السيرة الظاهرية" لشافع بن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ.
- ألف "من حطب الليل": الطبعـة الثانية عام ١٣٩٨هـ، والثالثة، عام ١٤٢٥هـ.
- ألّف عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م كتاب: "قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين".
- ألّف بين عامي ١٤٠٩هـ و١٤١٤هـ كتاب: "أي بُني"

في خمسة أجزاء.

- ألّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب: "إطلالة على التراث" سبعة عشر جزءاً.
- ألّف عام ١٤١٨هـ كتاب: "يوم وملك".
- ألّف منذ عام ١٤١٩هـ وحتى ١٤٢٧هـ ثلاثة أجزاء من كتاب: "ملء السلة من ثمر المجلة".
- ألّف عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠١م حديث الركبتين.
- ألّف عام ١٤٢٤هـ كتاب: "لمحة من تاريخ التعليم في المملكة العربية السعودية".
- ألّف عام ١٤٢٥هـ كتاب: "دمعة حرى"، والطبعة الثانية مزادة عام: ١٤٢٨هـ.
- ألّف منذ عام ١٤٢٦هـ/١٤٣١هـ أربعة وعشرين جزءاً من كتاب: "وسم على أديم الزمن - لمحات من الذكريات".
- ألّف عام: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م كتاب: "رصد لسياحة الفكر". أربعة أجزاء.
- ألّف عام: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م كتاب: "بعد القول قول".
- ألّف عام ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م كتاب: "السلام عليكم".

- ألف عام ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م كتاب: "نزّ اليراع".
- ألف عام ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م كتاب: "النساء رياحين".
- ألف عام ١٤٣١هـ/٢٠٠٩م كتاب: "هنيئاً لك السعادة".

مطبعة سفير تليفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ الرياض

ردمك : ٨ - ٨٨٣٤ - ٠٠ - ٦٠٣ - ٩٧٨